إعادة اكتشاف الصلاة

مختصر كتاب

إدارة الصلاة

إعادة اكتشاف الصلاة

مختصر كتاب

إدارة الصلاة

أحمد بسام ساعي



المعهد العالمي للفكر الإسلامي



الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

إعادة اكتشاف الصلاة (مختصر كتاب «إدارة الصلاة»)

تأليف: أحمد بسام ساعي

موضـوع الكتـــاب: ١- الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم ٢- فلسفة الصلاة
٣- البلاغة القرآنية ٤- لغة القرآن الكريم
٥- دراسات قرآنية ٦- الإعجاز القرآني

ردمك (ISBN): ١-٦٣٩-٥٦٥٦٤-١-٩٧٨

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٦/٢/٨١٣)

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703)471 1133, Fax: (1-703)471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان

ص.ب ٩٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢١+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠+
www.iiitjordan.org

النشر والتوزيع



مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع
عمان - الأردن
هاتف: ٩٦٢٦٩٠٧٠٠٧٩٧+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦٣٩٠٠٧+
Email: majed_fawzi@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المحتويات

موعد مع الله ٩
وإنّها لكبيرةٌ.. لماذا؟ ١٥
الرحلة من الواجب إلىٰ الحقّ ١٧
الحدود بين الواجب والحقّ ٢١
متعة الاستيقاظ للصلاة ٢٣
متعة الاصطبار ٢٧
الصلاة مدرسة الصبر ٢٩
لماذا نصلّي؟ ٣٤
الصلاة تعيد برمجتنا ٣٥
إيقاع الصلاة وإيقاع الحياة ٤٤
التنوع: المدرسة الحضاريّة الأولىٰ ٤٧
أهمّية التنوّع للخشوع ٥١
تبدّل الأوضاع والحركات، لماذا؟ ٥٣
الأذان وعجائبه العشر ٥٥
الوضوءان ٦٣
صلاة الجماعة: سرّ الحضارة ٦٨
خطبة الجمعة: الدورة التنمويّة التطويريّة ٧٨
من هنا نبدأ ٨٣

الخطوط الخمسة للصلاة ٩٠
المفتاح الأحمر (١): الله أكبر ٩٨
بين القراءة والتلاوة ١٠١
اللغة الجديدة للقرآن الكريم ١٠٤
اللغة المنفتحة والمساحة الخضراء ١٠٦
دور الفاتحة والقراءة ١٠٩
بسم الله الرحمن الرحيم ١١٢
الرحمن الرحيم ١١٧
المفتاح الأحمر (٢): إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين ١١٩
اهدنا الصراط المستقيم ١٢٢
محطّات المدّ في الفاتحة ١٢٦
مركزية الركوع والسجود ١٢٨
المفتاح الأحمر (٣): التحيّات لله ١٣٢
المفتاح الأحمر (٤): السلام علينا وعلى ... ١٣٦
وجلسةٌ للدعاء والأوراد ١٣٩
الرصيد ١٤١
جدول ما نالك من جواهر الصلاة ١٤٤
جدول ما فاتك من جواهر الصلاة ١٤٩
لتكن حياتك كلّها صلاة ١٥١

موعدٌ مع الله

قال لي مستغرباً: إدارة الصلاة؟! وهل للصلاة إدارةٌ؟! قلت: إذا كانوا يَدرسون إدارة أعمال الدنيا ليستثمروها خير استثمار، وليجنوا منها ما شاؤوا من ربح، وهو ربحٌ زائل، فلِمَ لا يكون لأعمال الآخرة إدارتها أيضاً، فنستثمرها أحسن استثمار، ونجني منها أعظم الأرباح، كيف لا وهو الربح الخالد، والجائزة التي لا تُنتقص؟ وهل هناك عملٌ أجدر بالاستثمار، وحُسن الإدارة، والادّخار؛ من عملٍ فريدٍ كالصلاة أريدَ به خير الدنيا والآخرةُ معاً؟

حدث في يومٍ رمضانيٍّ أن دعاني نادي الطلبة السعوديين في أوكسفورد لإلقاء محاضرةٍ قبيل الإفطار، فاخترت أن يكون حديثي لهم عن (إدارة الصلاة).

وفي الموعد المحدّد تقدّمت إلى المنبر وبيدي ورقةٌ خططتُ عليها آيتين وحديثين عن الصلاة. ألقيت السلام المعتاد، ثم فتحت الورقة، ورحت أقرأ ما فيها بسرعةٍ فائقةٍ لا يكادون يفقهون معها ما أقول. في دقيقةٍ واحدةٍ كنت قد انتهيت من قراءة الورقة، فطويتها على عجل، وبادرت بالمغادرة وأنا أقول: عفواً لتسرّعي، ولكنّي مضطرٌّ لأن أترككم الآن، فأنا على موعدٍ مع أناسٍ أكثر أهميةً منكم بكثير.. السلام

عليكم. وتناولت حقيبتي مندفعاً إلىٰ الباب وأنا ألمح بطرف عيني معالم الدهشة وقد عقدت ألسنتهم، وعلىٰ وجوههم خليطٌ من الاحتجاج والاستغراب وعدم التصديق، بل ربما الاستنكار والاستهجان..

هكذا كانت ردّة فعل البشَر التلقائيّة بإزاء تصرّفٍ غير مؤدّبٍ كتصرّفي تجاه من واعدتهم للّقاء، فكيف تتصوّرون أن يكون الردّ فيما لو فعلنا ذلك مع الله؟

عدت إلىٰ الطلبة خلال ثوانٍ لأعتذر عمّا بدر منّي قائلاً: هل أنتم غاضبون منّي؟ حسناً، لقد فعلت هذا معكم مرّةً واحدة، وها قد عدت معتذراً، ولكنّنا نفعل ذلك مع الله خمس مرّاتٍ كلّ يوم؛ ثمّ لا نعود إليه أبداً معتذرين تائبين.

أيّة فرصةٍ رائعة، وأيّ موعدٍ عظيم، وأيّة مناسبةٍ كريمةٍ تضيّعها من يدك وأنت تقتّر علىٰ الله بوقتك، وتؤدّي بين يديه صلاةً كهذه، هذا إن صحّ أن نسمّيها كذلك؟

هل لاحظتم أنّني قرأت علىٰ الطلبة السعوديّين الآيات والأحاديث من ورقةٍ بيدي وليس من ذاكرتي؟ أيّهما أكثر تأثيراً في السامعين: أن تقرأ عليهم في ورقة، أو أن ترتجل ما تريد أن تقول؟ إنّنا غالباً نتلو ما نتلوه في صلاتنا علىٰ طريقة من يقرأ في ورقة، فهي قراءةٌ تخرج من شفاهنا لا من صدورنا، وما أكبر الفرق بين أن "نقرأ" الصلاة علىٰ الله من شفاهنا وأن "نرتجلها" من قلوبنا.

أيّ مشروعٍ استثماريٍّ ضخمٍ قدّمه لنا تعالىٰ علىٰ طبقٍ من ذهب، فنبذناه باستهتارٍ لنخرج منه بلا شيء، لا شيء على الإطلاق، إلا ما يمكن أن نتوقّعه، لو كنا منطقيّين مع أنفسنا، من الرفض والإعراض، بل ربّما العقوبة، علىٰ تلك التحيّة وقد جاءت أقرب إلىٰ السخريّة منها إلىٰ التحيّة؟ ومع من؟

لا بدّ من إعادة اكتشاف أنفسنا وعباداتنا وما يحيط بنا من أشياء، وأن ننشّئ أبناءنا وبناتنا علىٰ منهجٍ فكريٍّ يساعدهم علىٰ إعادة اكتشاف كلّ ما حولهم، حتّىٰ هذه المخترعات التي بين أيديهم، إذا أردنا لهم أن يتجاوزوا صفوف الحَفَظة والتقليديّين إلىٰ مصافّ المفكّرين والمجدّدين.

أذكر في أواخر الأربعينيّات، حين كنت في السابعة أو الثامنة، أن عادت أمّي، رحمها الله، من زيارتها لعائلةٍ صديقةٍ من نصارىٰ اللاذقيّة وراحت تحدّثنا عن "راديو عجيب" حمله معه ابنهم من فرنسا بعد أن أنهىٰ دراسته هناك. قالت أمّي كلماتٍ لا يمكن أن أنساها: إنّ لهذا "الراديو" نافذةً في واجهته الأماميّة تستطيع أن ترىٰ فيها الشخص الذي يتكلّم فيه!..

لم أستطع أن أنام تلك الليلة وأنا أفكّر في المذيع المسكين الذي "حشروه" في هذا الصندوق الصغير وأقفلوا عليه: كيف استطاعوا أن يضعوه فيه؟ لا بدّ أنّهم اختاروه صغير الجسم بحيث يتّسع له

الصندوق، حسناً، ولكن، كيف يستطيع المسكين..؟ عفواً، هكذا كنت أنا الطفل الصغير أفكّر، كيف يستطيع الخروج في الليل إلىٰ الحمّام؟ وأين "يقضي حاجته"؟ عشرات، وربّما مئاتٌ من مثل هذه الأسئلة تناوبتني تلك الليلة ولم تدعْني أنام، ثمّ ظلّت بعد ذلك تدور في مخيّلتي وتقلقني لمدةٍ طويلةٍ قبل أن أعرف في النهاية أنّه "التلفاز".

يولد أطفالنا الآن وأمامهم التلفاز والمذياع والهاتف النقّال والحاسوب والأقراص الضوئيّة والأقمار الصناعيّة والطائرات والسيّارات والأجهزة الكهربائيّة العجيبة في بيوتهم وخارج بيوتهم، فلا يفكّرون كثيراً بعظمة هذه الاختراعات والاكتشافات، وعظمة من اخترعوها واكتشفوها، وعظمة اللحظة التي تمّ فيها اكتشافنا لها. لا بدّ من تدريبهم علىٰ إعادة اكتشاف عظمة هذه الأشياء، واكتشاف عظمة مخترعيها، ليقودهم ذلك إلىٰ إعادة اكتشاف عظمة الخلْق، في أنفسهم وفيما حولهم، وإعادة اكتشاف عظمة الله في هذا الخلق، وليقودهم إلىٰ إعادة اكتشاف أنفسهم ودينهم وعباداتهم، فينفضوا غبار الألفة والعادة والتكرار عنها؛ لتعود دائماً جديدةً في أعينهم؛ وكأنّهم يعرفونها أو يمارسونها لأوّل مرّة. هكذا درّبنا القرآن الكريم، إن كنّا من أهل القرآن، علىٰ "إعادة الاكتشاف" في كثيرٍ من آياته:

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ

حَسِيرٌ ﴿٤﴾ [المُلك: ٣-٤].

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [المُلك: ١٩].

- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾﴾ [المُلك: ٣٠].

هذا المنهج القرآنيّ ينتظم معظم السوَر والآيات، فالمجتمع الذي ينشأ على هذا المنهج سيجد نفسه باستمرار في حالة "إعادة اكتشاف" لنفسه ولما حوله، ومن ثمّ، في حالةٍ حضاريّةٍ وإيمانيّةٍ مستمرّةٍ مع استمرار الأجيال. إنّنا مدعوّون إلى أن نضع على أعيننا صباح كلّ يومٍ نظّاراتٍ جديدةً عذراء لننظر من خلالها إلى أنفسنا، وننظر إلى العالم من حولنا وكأنّنا نراه لأوّل مرّة، وسنرى حينذاك كم سنكون بهذه النظّارات أقرب إلى الله..

لقد انتشر في حياتنا العامّة، وفي دوائرنا التربويّة والجامعيّة، موادّ وحقولٌ مختلفةٌ في علم الإدارة تُعنى بدراسة أمثل الطرق لاستثمار المشاريع الصناعيّة والتجاريّة والزراعيّة والعمرانيّة، بل استثمار كلّ ما يمكن أن يحقق الكسب ويجلب النفع للناس، العامّ منه أو الخاصّ، فهل فكّرنا مرّةً بإنشاء تخصّصٍ أو حقلٍ أو مادةٍ في مدارسنا أو معاهدنا أو جامعاتنا لاستثمار ما هو خيرٌ من كلّ هذه المشاريع، وأكثر فائدةً، وأطول دواماً، وأضمن حصيلةً، وأعمّ نفعاً للدنيا والآخرة، بل ما هو عاملٌ أساسيٌّ في نجاح تلك المشاريع الدنيويّة العابرة، وهو إدارة

العبادات، وإعادة اكتشافها، وعلىٰ رأسها ركن الصلاة؟ إنّها: موعدٌ مع الله، وأيّ موعد.

إنّه لقاءٌ يحتلّ القمّة في قائمة عباداتنا، أو استثماراتنا الدنيويّة - الأخرويّة. ولا تعجب إذا لم يأت ترتيبُ فريضة الجهاد، الفريضة الشاقّة والـمُكْلِفة والخطرة، الأولىٰ ولا الثانية في التشريع الإسلاميّ، لقد جاء ترتيبها الثالثة، وجاء قبلها برّ الوالدين، وجاء قبل قبلِها الصلاةُ علىٰ وقتها:

عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ الأعمال أحبُّ إلىٰ الله؟ قال: الصلاةُ علىٰ وقتها، قلتُ: ثمّ أيّ؟ قال: ثمّ برّ الوالدين، قلت: ثمّ أيّ؟ قال: ثمّ الجهاد في سبيل الله [رواه مسلم][(١)]

إنّه لحديثٌ عجيبٌ، وإن اعتاد أكثرنا أن يمرّ به مرور الكرام. أن تَفوق الصلاةُ الجهادَ أهميّةً وصبراً ومصابرةً وفضلاً وأجراً، وبمرّاتٍ عديدة، أمرٌ يستدعي منّا التوقّف والتأمّل حقّاً، ولاسيّما وقد وصفها ربّنا بأنّها (كبيرةٌ) علينا، ولكنّه استثنىٰ (الخاشعين). إنّ هؤلاء لن

(١) في الأحاديث الشريفة؛ ميّزنا ما أضافه الرواة إلىٰ الحديث من توضيحات أو تعليقات بجعله بين قوسين عاديّين ( )، وما أضفناه من عندنا من هذه التوضيحات والتعليقات بوضعه بين قوسين متوسّطين [ ] وما ورد من آياتٍ خلال الأحاديث بجعلها بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾، وقد وضعنا بين معترضتين -- كلّ ما أضفناه من شروحٍ علىٰ ألفاظ وعبارات الحديث.

يجدوها كبيرةً أو صعبةً عليهم؛ لأنّهم بخشوعهم سيجدون اللذّة والطمأنينة والراحة والجدار المنيع الذي يستندون إليه في حياتهم، بل إنّها، مع هذا الالتزام بالخشوع، والهدوء، والأناة، في القراءة والحركة والتفكّر والتخيّل، مدرسةٌ روحيّةٌ للتدرّب على الصبر، والتركيز الذهنيّ، والإنصات، والتواضع، وحسن قبول الآخر، وحسن الاستماع إليه، وهدوء الأعصاب، والتمكّث والأناة في اتّخاذ القرارات، والاعتدال في المواقف، وعدم الاندفاع والتطرّف في الأحكام، والحكمة في التعامل مع الناس والحياة، ولا غرابة إذن في أن ربط تعالىٰ بين الصبر والصلاة في أكثر من آيةٍ كريمة:

- ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: ٤٥].

- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

* * *

"وإنّها لكبيرةٌ".. لماذا؟!

لماذا الصلاة؟

لماذا نلغي مواعيدنا، ولماذا نترك أشغالنا ونقطع تجارتنا ونعلّق كلّ شيءٍ في حياتنا اليوميّة، مهما كانت درجته من الأهمّية، لننصرف إلىٰ أداء الصلاة؟

لماذا جعلها الرسول ﷺ الفارق الحاسم بين الإيمان والكفر؟ ولماذا كان التنبيه إليها والتأكيد عليها آخرَ ما جاء على لسان الرسول ﷺ وهو يردّد على فراش الموت «**اللهَ اللهَ في الصلاة، اللهَ اللهَ في الصلاة**»؟

هل جاءت الصلاة في أصلها عقوبةً أم مكافأةً؟ ما وجه الصعوبة فيها، إن كان هناك حقاً أية صعوبة؟ وما وجه المتعة فيها، إن كنّا نشعر حقاً بأيّة متعة؟ لماذا في هذه الأوقات؟ لماذا بهذه الحركات وعدد الركعات؟ لماذا بهذه العبارات والقراءات؟ لماذا وُجدت في كلّ الأديان؟ وكيف لها أن تفوق الجهاد والقتال والاستشهاد في ميادين المعارك والقتال بحيث تحتلّ عند الله ورسوله هذه الدرجة من الأهمّية والخطورة؟!

يجب أن أعترف أنني ظللت أصلّي خمسين عاماً قبل أن أكتشف أنّني أمتلك بالصلاة أكبر مشروعٍ تجاريٍّ وضع تعالى رصيدَ ميزانيّته في حسابي المصرفيّ لأقوم باستثماره، وأنّ عليّ أن أجتهد في اختيار الطريقة المثلى لإدارته وتشغيله بحيث أخرج منه بأكبر حصادٍ وأعظم متعةٍ يمكن أن يحلم بها إنسانٌ على ظهر هذه البسيطة.

أرأيت لو حالفك الحظّ مرّةً وشاهدت معركةً بين مجموعتين من النمل على قطعةٍ صغيرةٍ من السكّر، كلٌّ تحاول الفوز بها، فهذه تقفز فوق ظهر الأخرى، وتلك تُعمِل مخالبها الصغيرة في رِجْل عدوّتها تحاول بترها لتمنعها من الوصول إلى قطعة السكّر، وأخرى تبطش

بهذه أو بتلك؟ ستقف من غير شكٍّ متفرّجاً متضاحكاً لهذه المعركة العجيبة بين الجيشين الصغيرين، وحول ماذا؟ حول قطعة سكّرٍ تافهةٍ لا تساوي شيئاً..

لو صلّيتَ صلاةً حقيقيّةً تامّة، صلاةً شعرتَ معها أنّك ترتفع عن الدنيا وتصل بها إلىٰ الله، ثمّ نظرت من تلك الأعالي السامقة إلىٰ ما تحتك من هذه الدنيا، تلك التي غادرتَها لتوّك بصلاتك، لشاهدت كلّ ما فيها، مهما عظُم في نظرك، صغيراً لا يكاد يُرىٰ بالعين المجرّدة، ولرأيت أنّ قطعة السكّر الحقيرة التي كانت تتقاتل عليها النملات؛ ما هي إلاّ دنياك التافهة، وأنّ النمال الصغيرة الحمقىٰ التي تتصارع وتتفانىٰ للفوز بتلك القطعة؛ ما هي إلاّ أنت ومجموعة البشر الذين تعاديهم أو يعادونك، وتقاتلهم أو يقاتلونك، وتظفر بهم في النهاية، وبقطعة السكّر، أو يظفرون بها وبك.

❋ ❋ ❋

الرحلة من الواجب إلىٰ الحقّ

نعم، قد تبدأ الصلاة في شرعنا واجباً «**مُروا أولادَكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً**» [رواه أحمد عن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدّه] ومن أجل ذلك كان «**بين الرجل وبين الكفر تركُ الصلاة**» [رواه مسلم عن جابر بن عبد الله].

ولكنّ هذا "الواجب" لا يلبث، في مرحلةٍ تاليةٍ من عمر الإنسان، حين يشبّ الولد عن الطوق، ويدرك طبيعة الصلاة وكيميائيّتها، ويكتشف حجم أهمّية هذا الخطّ الساخن من الاتّصال مع ربّه، أن يبدأ عنده مفهوم "الواجب" بالتراجع؛ ليحلّ محلّه شيئاً فشيئاً مفهوم "الحقّ".

أرأيت كيف نجبر الولد الصغير على تناول الدواء، وهو عنه مُعرض؟ ولكن، مع الزمن، ومع تحوّل الطفل الصغير شيئاً فشيئاً إلى رجلٍ أو امرأة، سيبدأ مفهوم الدواء عنده بالتحول من مرحلة "الواجب" إلى مرحلة "الحقّ"، وقد غدا يدرك الآن تمام الإدراك أنّ في هذا الدواء إنقاذ روحه واسترداد عافيته.

تخيّل أنّك هممت باستئجار منزلٍ كبيرٍ أعجبك كثيراً، وسُحرتَ بجماله واتّساعه وحُسن موقعه وفخامة أثاثه وتجهيزاته، فإذا ما أحكمت رأيك، وعزمت أمرك، وجلست تفاوض صاحب البيت في قيمة الإيجار، إذا به يفاجئك بهذه القيمة: إيجاره أن تتناول عندي وعلى حسابي خمس وجباتٍ شهيّةٍ كلّ يوم، لا أريد منك أكثر من ذلك ولا أقلّ!

أيّ عرضٍ كريمٍ هذا؟! أوَتظنّونه كذلك؟ إنّه العرض نفسه الذي عرضه تعالى علينا لنسكن أرضه هذه، وننعم بخيراتها، ونرفل بحللها، ونشارك في عمرانها.

أليس من الظلم لأنفسنا ألاّ نعطي "وجبات" الصلاة اليوميّة من وقتنا؛ ما نعطيه لوجبات طعامنا؟ أوَليس من الظلم لأنفسنا ألاّ

نستمتع بوجبات صلاتنا كما نستمتع بوجبات طعامنا؟ ولماذا نغدق على وجبة المعدة من الوقت ما نبخل بمثله على وجبة الروح؟ وأيّهما الأهمّ لنا يا تُرى؟

هل سمعتم عن جائزةٍ كبيرةٍ اشترط مانحها ألا يتسلّمها صاحبها إلاّ إذا رضي أن يتسلّم قبلها جائزةً كبيرةً أخرى؟ أيّ نوعٍ من الجوائز تلك الجائزة؟ إنّها الصلاة. أنت لن تنال جائزتك الكبرى عليها عند الله؛ حتّى تقبض جائزتك الروحيّة العظيمة بالاستمتاع بأدائها على أنّها (حقٌّ) لك، لا واجبٌ أو عبءٌ عليك.

أيّ متعة ستشعر بها وأنت تبدأ صلاتك مردّداً: الله أكبر، حين تتصوّر الملائكة وهي تأتي حاملةً ذنوبك، كلّ ذنوبك على الإطلاق، لتضعها كالبرجين المرتفعين على كتفيك، فكلما شرعتَ بالركوع أو السجود؛ تهاوت الذنوب من هذين البرجين طبقةً بعد طبقة، فأطِلْ ركوعك وسجودك أو قصِّرْ:

- إنّ العبدَ إذا قام للصلاةِ أُتِيَ بذنوبِه كلِّها فوُضعت على عاتقيه، فكلّما ركعَ أو سجدَ تساقطتْ عنه [صحّحه الألباني في سلسلة صحيحه، عن ابن عمر].

- ما من مسلمٍ يتوضّأ فيُسبغُ الوضوء، ثم يقوم في صلاته فيعلمُ ما يقول، إلاّ انفتلَ وهو كيومِ وَلدَتْه أمُّه [صحّحه الألباني في صحيح الترغيب، عن عقبة بن عامر].

ما أسهل أن ينقلب الحقّ بين أيدينا إلىٰ واجب، وربّـما إلىٰ واجـبٍ ثقيلٍ نسعىٰ إلىٰ أن نتخلّص منه بأسرع وقت. هذا هو شأن مـن يـشعر أنّه إنّما "يستهلك" أو "يخسر" أو "يضيّع" من وقته الثمين ما يـؤدّي فيـه بضع ركعات.

"الواجب" يرتبط دائماً في ذاكرتنا بـ"العبء"، والعبء أمـرٌ ثقيـلٌ علىٰ النفس؛ ترىٰ فيه عنصراً آخذاً لا مانحاً؛ لأنّـه يحرمهـا مـن بعـض حقّها في الوقت أو الراحة. من هنـا يبـدأ التـشوّه، ومـن هنـا تتحـوّل الصلاة عند كثيرين إلىٰ عبءٍ يحاولون أن "يتخلّصوا منه" ويزيحوه مـن علىٰ أكتافهم:

- أرِحْنا بها يا بلال [رواه العراقي عن بلال بن رباح]

ليس السؤال إذن هو: هل أدّيـت الـصلاة أم لا؟ عـلىٰ أهمّيـة هـذا السؤال وخطورته، بل السؤال الذي يجب أن أطرحه علىٰ نفسي بعد كل صلاة هو: هل تسلّمت جائزتي التي رُصدت لي من هذه الـصلاة؟ هـل استمتعت بها حقاً وأنا أتملّىٰ، خلالهـا وبعـدها، مـا تـذوّقت لتـوّي مـن ثمارها الدنيويّة، وأتلمّظ لما ادّخرت لآخرتي من ثمارها المرجوّة؟

اجعـل مـن صـلاتك تـذكرةً مجّانيّـةً لرحلـةٍ ممتعـة، لا أقـول حـول العـالم، بـل حـول الكـون كلّـه، فتـصل بهـا إلىٰ مَلـك هـذا الكون وحاكمه المطلق.

الحدود بين الواجب والحقّ

كثيراً ما يختلط الواجب في حياتنا مع الحقّ، فلا ندري الحدود الفاصلة بينهما: أين ينتهي الواجب ليبدأ الحقّ، وأين ينتهي الحقّ ليبدأ الواجب؟

الحجّ واجبٌ وهمّةٌ وسفرٌ ونصَبٌ وتكاليف، وربّما مخاطر، ولكن حين نفكّر بما تحمله لنا كلّ خطوةٍ نخطوها من أجر، سيتبخّر من رؤوسنا هذا الشعور بالواجب، ويبدأ الحقّ باحتلال مواقعه فينا حتّىٰ لا يبقىٰ للشعور بالواجب في نفوسنا مكان.

والصدقة واجبٌ وسعيٌ وتكاليف، فإذا ما أدّيناها عن رضًىٰ، وعن إدراكٍ لما تمنحه لنا من أجرٍ، ولمن أحسنّا إليه من سعادة، أحسسنا بزخّاتٍ من السلام والاطمئنان تتنزّل علينا، بما أرضينا به ربّنا، وبما قدّمناه للمحتاج من حمايةٍ ودفءٍ وأمان.

والصيام واجبٌ وفرضٌ وجوعٌ وعطشٌ ومصابرةٌ ومشقّة، ولكن مع كلّ دقيقةٍ تمرُّ بنا سنستشعر متعة الأجر، ولذّة القرب من الله وقد استجبنا لأوامره ونواهيه، واقترب موعد المكافأة التي وعدنا بها. إنّها لن تقتصر علىٰ الإفطار بعد يومٍ طويلٍ من الجوع والظمأ فحسب، بل سيأتي علىٰ رأس ذلك إحساسُنا بمتعة الانتصار في معركة حرمان النفس

من شهواتها، ومتعة إضافة المزيد إلىٰ حسابنا المصرفيّ الإلهيّ الخالد.

إنّه الفرق نفسه بين الحلال والحرام. إنّه تعالىٰ لم يحرّم علينا شيئاً إلاّ وقايةً لنا من ضرره، أدركنا طبيعة هذا الضرر أم جهلناها، ولم يحلّل لنا أو يأمرنا بشيءٍ إلاّ اغتناماً لفائدته ونفعه، أدركنا طبيعة هذه الفائدة أم جهلناها، ولو امتلكنا حدّاً أدنىٰ من الذكاء؛ وبحثنا عن تعبيرٍ واقعيٍّ اقتصاديٍّ أو نفسيٍّ أو طبّيٍّ للحلال والحرام لاستعضنا عنهما بالتعبيرين: النافع والضارّ.

ما أسهل أن تنقلب كلّ الحقوق في أيدينا إلىٰ واجبات، ولكنْ ما أسهل أيضاً، وأمتع وأروع، أن تنقلب كلّ الواجبات بين أيدينا إلىٰ حقوق.

لو حدث أن فزت بجائزةٍ ماليّةٍ كبيرةٍ من إحدىٰ المؤسّسات، وطُلب منك السفر لتسلّم الجائزة، ألا تسرع بسعادةٍ وحماسةٍ للحصول علىٰ جائزتك، مضحّياً بوقتك وبجهدك، ومستسهلاً كلّ الصعوبات التي قد تواجهك في الطريق إليها؟ إذن، أفلا تستحقّ منك جائزة الصلاة مثل هذا الجهد، بل أكثر؟ وأين مكافأة الصلاة من أيّة مكافأةٍ دنيويّة، مهما عظمت؟!

كيف يمكن أن تستمتع بمذاق الثمرة إذا لم تمدّ يدك إلىٰ الشجرة لتقطفها؟ وكيف يمكن أن تستمتع بالنوم اللذيذ إذا لم ترتّب مكان نومك وتمهّده وتؤمّن الفراش الوطيء والأغطية الكافية والجوّ الهادئ

والغرفة الخافتة الضوء والصوت؟ لقد قالوا وصدقوا: صـحيحٌ أن الله هو الذي يهَب الطيور غذاءها، ولكن لا بـدّ لهـا أن تطـير وتـصل إليـه لتستمتع بلذّة تناوله.



متعة الاستيقاظ للصلاة

حين كنـت صـغيراً؛ وكـان عـليّ أن أسـتيقظ لـصلاة الـصبح في "منتصف الليل"! -هكذا كان يخيَّل لي آنذاك- كنت أتساءل فـيما بينـي وبين نفسي: ولماذا في هذا الوقت من الليل؟! أوَلا يريد الله منّا أن نصلّي له خمس صلوات، فلماذا يجعلها في هذا الوقت الصعب؛ ويطلب منّا أن نستيقظ حين نكون في أمتع ساعات نومنا لنصلّي له؟! ما العيـب في أن نؤدّي هـذه الـصلاة في الـساعة الـسابعة أو الثامنـة أو حتّـى العـاشرة صباحاً؟ أوَليست الصلاة هي الـصلاة في أيّ وقـتٍ جـاءت؟ أوَلـيس الذي نقرأه في المتأخّرة منها هو نفسه ما نقرأه في المبكّـرة؟ وإذا جـاءت الصلاة لتحافظ على "اتّصالنا" بالله، ولزجر الشيطان بعيـداً عنّـا، فـأيّ دورٍ للشيطان علينا حين نكون مـستغرقين في النـوم؟ لمـاذا نخـشى أن نفقد اتّصالنا بالله، وأن ننزلق إلى أحابيل الشيطان، ما دمنا نائمين وغير قادرين أصلاً على التفكير بأيّ نوعٍ من الاتّصال أو عدم الاتّـصال، أو على التخطيط لخيرٍ أو لشرّ؟

هذه التساؤلات ربّما تَرِد علىٰ أذهان الكبار منّا أيضاً وليس الصغار وحدهم، ولكنّ الكبار هم الذين سيدركون في النهاية أنّ الصلاة ليست مجرّد عمليّة اتّصالٍ دوريٍّ بالله تعالىٰ فحسب، وإنّما هي أيضاً برنامج حياةٍ كما سوف نرىٰ..

من ذاق حلاوة الاستيقاظ مع الفجر، ثم الخروج مع الخيوط الأولىٰ إلىٰ المسجد، ثم الخروج من المسجد قبل شروق الشمس للشروع في عمله اليوميّ، أيّاً كان عمله، هذا الإنسان وحده يعرف قيمة البكور، وقيمة استنشاق نسائم الفجر العذراء، والاستمتاع بسكينة الصباح الباكر، وقربِ المسافة فيه إلىٰ الله، ليس أثناء صلاة الفجر فحسب، بل قبلها وخلالها وبعدها.

إنه يشهد يقظة الحياة من جديدٍ بعد سُباتها، الليل ينسلخ منه النهار، والخيوط الأولىٰ من الفجر تولد أمام عينيه من رحم الليل، والسماء والأرض والأشجار والأعشاب والأزهار تكشف عنها غطاءها، وتسفر له بحياءٍ عن وجهها، وتنبعث فيها الحياة تحت نظره من جديد. إنّه الآن أمام عرضٍ إلهيٍّ مصغّرٍ مدهشٍ لليوم الأوّل من الخَلق كيف بدأ، ولِمعجزة ولوج النهار في الليل كيف تمّت، وللانبعاثة الأولىٰ للحياة وهي تنتشر ممتدّةً في عروق الكون، بحيث يشعر من يشهد هذه الساعة الفريدة أنّ عقله وملَكاته وتفكيره تتفتّح متوهّجةً مندفعةً للإنجاب والعطاء، فتمنحه طاقةً إضافيّةً وخصوبةً ونشاطاً وثراءً وإنتاجاً وإبداعاً، وكأنّها حياةٌ جديدةٌ بكرٌ قد أهديت إليه.

إنّه الفجر، يمنحك عيناً جديدةً ترىٰ بها من أسرار الكون، وتكتشف من إعجاز الخلق؛ ما لم تكن قادراً علىٰ اكتشافه في الأوقات الأخرىٰ من يومك.

من جرّب الاستيقاظ والعمل في هذه الساعات الأولىٰ من اليوم؛ يدرك تماماً كيف أنّ ساعتين أو ثلاثاً من العمل في هذا الوقت من أوقات الحياة تَعْدلان في حصادهما ساعاتٍ طويلةً من العمل في بقيّة الأوقات. إنّ بينك وبين الفوز بهذه الساعات الفريدة شيطانَ نومك، فإذا نجحت في مقاومته والتغلّب عليه في اليوم الأوّل، ثمّ في اليوم الثاني، ثمّ علىٰ مدىٰ بضعة أيّامٍ متتاليةٍ؛ تُعاهد فيها نفسك علىٰ أنّ التبكير سيكون منك التزاماً ووعداً يشبه التزام الصائم بالصيام في الأيّام الصعبة الأولىٰ من رمضان، إن فعلتَ ذلك فسوف تغدو بعدها عادةً مترسّخةً في تكوينك الفيزيائيّ، وجزءاً ممتعاً من برنامجك اليوميّ لا تستطيع التخلّي عنه.

ها أنت تفتح عينيك وأنت ما تزال في فراشك، وها هو الشيطان يشدّ رأسك إلىٰ وسادتك ويقول لك: أغمض عينيك يا عزيزي واستسلم للنوم، لا تضيّع علىٰ نفسك هذه الغفوة اللذيذة في مثل هذه الساعات المبكّرة من الصباح، إنّها أحلىٰ ساعات الاسترخاء والكسل والنوم العميق، نم هانئاً، لمَ العجلة؟

إنّه حديث الشيطان المتكرّر والملحاح إلينا، فكيف تقاوم إغراءاته ووساوسه؟ هذا ما يشرحه لك رسول الله ﷺ ويحاول أن يساعدك

علىٰ تجاوزه والتغلّب عليه:

- يعقد الشيطانُ علىٰ قافيةِ رأسِ أحدِكم إذا هو نام ثلاثَ عُقد، يضربُ كلَّ عقدةٍ مكانَها -أي يختم عليها بخَتمه-: عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقدْ، فإنِ استيقظَ فذَكرَ اللهَ انحلّتْ عقْدة، فإنْ توضّأ انحلّت عقْدة، فإنْ صلّىٰ انحلّت عُقَدُه كلُّها، فأصبحَ نشيطاً طيّبَ النفس، وإلاّ -أي إن لم ينهض للصلاة- أصبح خبيثَ النفس كسلانَ [رواه البخاريّ، عن أبي هريرة].

هل حاولتم مرّةً أن تنعموا النظر في وجوه أولئك الذين ينامون في أوّل الليل ليستيقظوا مبكّرين لصلاة الصبح، وأن تقارنوها بوجوه أولئك الذين يسهرون حتّىٰ آخر الليل ثمّ يستيقظون وقد فاتهم وقت الصلاة؟ لو فعلتم لأدركتم بعض أسرار هذه الآلة العجيبة التي اسمها "الإنسان" والتي قدّر لها صانعها حين صنعها؛ قاعدةً فيزيائيّةً عجيبةً تقول: إنّ خير وقتٍ لإعادة "تشغيلها" بعد النوم هو قبل شروق الشمس وليس بعده، هكذا جاء تصميمها من الصانع لحكمةٍ يمكن، أو لا يمكن لنا أن نفهمها، ومن يعلم أسرار هذه الآلة الإنسانيّة، ما اكتُشف منها وما لم يُكتشف، أكثر من خالقها؟ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [المُلك: ١٤].

لقد هبّت لك الطبيعة من فراشها، كما برمجها لنا خالقها وخالقنا، لتضيء لك كلّ روائع الحياة من حولك مع الخيط الأوّل من الفجر؛ لا من أجل أن تنام، بل من أجل أن تنهض فتعمل وتنتج وتعمر الأرض،

فلا تبخس هذه النعمة الإلهيّة ثمنها، ولا تُهدر هذه الطاقة التي سخّرها الله لك ولكلّ مخلوقاته من حولك لكي تبدأوا يومكم الجديد. ألم ترَ إلىٰ الزهرة التي أطبقت أجفانها مع الغروب عادت لتتفتّح مع ضوء الفجر الأوّل، وإلىٰ الطيور وقد بكّرت مغرّدةً ومحلّقةً في السماء ساعيةً إلىٰ أرزاقها، وإلىٰ البقر والخراف والماعز والدجاج، وكلّ ما خلقه الله علىٰ وجه هذه الأرض من حيوانٍ، وقد استيقظت بنشاطٍ مع خيوط الفجر الأولىٰ لتبدأ دورة الحياة من جديد؟

أدرك الحياة، واقطف ثمارها؛ قبل أن يفوتك قطارها من غير رجعة.



متعة الاصطبار

عندما نقود السيّارة متّجهين إلىٰ عملٍ أو مكانٍ ما؛ لا يكون همّنا غالباً ونحن نقود السيّارة إلا أن نصل إلىٰ المكان المطلوب، وبأقصىٰ سرعةٍ مسموحٍ بها، أو ربّما غير مسموح. إنّها الطريقة النموذجيّة لتَناطُح الواجبات في رؤوسنا وإتلاف أعصابنا.

ماذا لو جعلنا من قيادتنا للسيّارة حقّاً نستمتع به؟ نداور الزمن ونصطبر عليه، فنخرج مبكّرين قليلاً، بحيث يكون لدينا الوقت الكافي لقيادة سيّارتنا بأناة، وهكذا تتاح لنا فرصة تقليب النظر في

مشاهد الطريق حولنا، واكتشاف ما لم نكن قد اكتشفناه في الرحلات السابقة، والاستمتاع بلذّة القيادة، وبلذّة التأمّل، من غير أن نستهلك أعصابنا في التفكير بالوقت الذي مرّ علينا، أو بالمسافة التي ما تزال متبقّيةً أمامنا؟

ألا تخصّص لرحلتك وقتاً إضافيّاً لتجعل منها متعةً لك ولمن معك، وحقاً تمارسه بلذّة، لا واجباً ثقيلاً عليك وعليهم؟ هكذا فافعل مع صلاتك.

إنّ الأمر لا يحتاج منك إلا لعقد اتّفاقية هدنةٍ قصيرةٍ مع الزمن تعينك على الاصطبار، بحيث تجعل من الصبر بحدّ ذاته متعة. أما جرّبت حلاوة الصبر على الصيام حتّى تفطر، والصبر على المكاره حتّى تنفرج، والصبر على المرض حتّى تتعافى، والصبر على الاصطفاف للحصول على التذكرة قبل أن يُسمح لك أخيراً بالدخول إلى قاعة الاحتفال، والصبر على الدراسة حتّى تنجح.

هل بلَوت متعةَ اصطبارك وحرمان نفسك من شيءٍ وأنت قادرٌ على إتيانه؟ هل جرّبت روعة قدرتك على شراء قطعة حلوى، أو قميصٍ جديد، أو سيّارةٍ جديدة، وامتناعِك، مع ذلك، عن شرائها؛ تمسّكاً بمبدأ، أو وفاءً بعهدٍ، أو تواضعاً، أو احتراماً لمن هم معك ممّن لا يملكون ثمن شرائها؟ إنّها متعة الاصطبار، هكذا شأن الصلاة:

- ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢].

إنّ اصطبارك على الصلاة لا يعني شدّةً وامتحاناً وعقوبةً من الله، وإنّما شأن الاصطبار عليها شأن اصطبارك للحصول على أيّة متعةٍ تريد أن تجنيها، ولا بدّ أن يعظم الثمن، ويزداد الاصطبار، مع ازدياد حجم المتعة وعظمة نوالها، وهل هناك ما هو أعظم من متعة الوقوف بين يدَي خالقك؛ لتبثّه نجواك، وترمي عند أعتابه همومك وأشجانك عن كتفيك، لتخرج بعد هذا اللقاء الحميم وقد تطهّرت من ذنوبك وولدت من جديد؟



الصلاة مدرسة الصبر

يحيّرني اختفاء الحديث عن فضيلة (الصبر) اختفاءً شبه تامٍّ في الآداب الغربيّة، فلا تكاد تجد لهذه الفضيلة موقعاً عندهم حين يتحدّثون عن الفضائل الأساسيّة في الإنسان، ويشهد بهذا من هم أكثر قراءةً مني لهذا الأدب. لقد تحدّثوا عن الشجاعة، والصدق، والعزيمة، والعمل، والكرم، والمروءة، والنجدة، والاستقامة، والإخلاص، والمحبّة، والعدالة، والمساواة، والحرّية، والديموقراطيّة، والتواضع، ومساعدة المساكين والمحتاجين، وعن خصالٍ كثيرةٍ غيرها، ومع ذلك، وللعجب، لم يفكّروا أبداً أن يتحدّثوا عن خَصلة الصبر. وبالمقابل، حين أحصيت كلمات (الصبر) ومشتقّاتها في القرآن الكريم وجدت أنّها تكرّرت ما لا يقلّ عن (١٠٣) مرّات، فضلاً عن ورودها مئات

المرّات في الحديث الشريف.

أقول (للعجب) وأنا أنظر إلىٰ الحضارة الغربيّة وقد فرضت نفسها علىٰ العالم بكشوفها واختراعاتها، وكلّنا يعلم أنّ الصبر هو أوّل سلاحٍ يتسلّح به المكتشف أو المخترع، وهو يُمضي معظم نهاره وليله دؤوباً ساهراً في مختبره، عاكفاً علىٰ تجاربه المضْنية، باحثاً للكشف عن الجديد، ومصرّاً علىٰ التوصّل إلىٰ ما عجز الآخرون عنه، وأنّىٰ له ذلك بغير الإلحاح والتصميم والمثابرة والصبر؟ ولعلّ ما حقّقه هؤلاء من كشوفاتٍ علميّةٍ فذّة، ومن استيلاءٍ علىٰ العالم، فكره ولغته وأرضه، يعود إلىٰ أنّ الصبر والمثابرة والتَّماسُك عناصر راسخةٌ في طبيعتهم الإنسانيّة، ولهذا، ربّما، لم يجدوا تلك الحاجة لذكرها في أدبيّاتهم.

ولو نظرت في أهمّ ثلاث عبادات في الإسلام، الصلاة والصيام والحجّ، لوجدت كلاًّ منها تبدو وكأنّها مدرسةٌ صُمّمت خصّيصاً للتدريب علىٰ الصبر ولتخريج الصابرين. قد تقول لنفسك: أمّا الصيام والحجّ فواضحٌ جانب الصبر فيهما، ولكن ما شأن الصلاة بالصبر؟

تخيّل أنّك انتسبت لدورةٍ تدريبيّةٍ في أحد المعاهد لتعليم الصبر والتدريب عليه، فأيّ نوعٍ من البرامج تتوقّع أن يقدّموا لك في هذه الدورة؟

إذا كانت الصلاة لا تكون صلاةً إلاّ بالخشوع، خشوعاً يترتّب فيه علىٰ المصلّي أن "يَعْلم **ما يقول**" كما أكّد لنا نبيّنا الكريم ﷺ فهل

يتحقّق ذلك الخشوع إلاّ بالصبر؟

ما أسهل وما أرخص تجارةً، ولكن ما أقلّ ربحاً، أن تسرع فتقرأ كلّ قراءاتك وتسبيحاتك وتكبيراتك في الصلاة بحيث "لا تعلم ما تقول"، ولكن ما أصعب وما أعظم تجارةً وأكثر ربحاً، وعشرات الأعمال تنتظرك بعدها على الباب، أن تقرأها كلمةً كلمةً، ووقفةً وقفةً بعد كلّ كلمةٍ تحتاج إلى هذا التوقّف، بحيث "تعلم ما تقول".

إنّ ترديدك، وسط هذا الازدحام من العمل، لعبارةٍ منفتحةٍ مثل (الله أكبر...) ثمّ توقّفك بعدها لتملأ في ذهنك ذلك الفراغ الافتراضيّ: الله أكبر ممّن؟ وممّاذا؟ عملٌ يحتاج إلى الصبر، بل الكثير من الصبر،

وترديدك، وسط هذا الازدحام من العمل، للتسبيحات المنفتحة أيضاً (سبحان ربّي العظيم/ الأعلى)، ثمّ توقّفك بعد كلٍّ منها لتملأ في ذهنك الفراغ الافتراضيّ بعدها: أسبّح ربّي وأعظّمه بماذا، أو أنزّهه عمّاذا؟ يحتاج إلى الصبر، بل الكثير من الصبر،

ومدّك، وسط هذا الازدحام من العمل، لكلٍّ من (بسم الله) و (الرحمن) و (الرحيم)، مثلما مدّها النبيّ ﷺ، بحيث تستوعب معناها وشخصيّة كلٍّ منها المختلفة عن الأخرى، كما سوف نرى، يحتاج إلى الصبر، بل الكثير من الصبر،

ووقفتك، وسط هذا الازدحام من العمل، بعد تلفّظك لكلٍّ من (التحيّات لله) و(الصلوات) و(الطيّبات)، بحيث تستشعر مع كلّ وقفةٍ

متعةَ تلقّي الردّ من الله عزّ وجلّ، ثمّ وقفتُك بعد تسليمك على النبيّ ﷺ بانتظار الاستمتاع بتلقّي الردّ، وهكذا تسليمك على (عباد الله الصالحين) والاستمتاع بتلقّي أجر التسليم على جميع هؤلاء، كما سوف نفصّل، كلّ ذلك يستدعي الصبر، بل الكثير من الصبر،

ووقفتك، وسط هذا الازدحام من العمل، بين الحركة والحركة، وبين القراءة والقراءة، وبين الآية والآية، بحيث تعطي كلاً منها، منفردةً، حقّها من الجدّية والمصداقيّة والاحترام لتكون مقبولةً عند الله تعالى، كما ستشرحه الصفحات المقبلة، تستدعي الصبر، بل الكثير من الصبر.

لو تأمّلت في كل نجاحاتك، وكلّ إنجازاتك، وكلّ خصائلك، لوجدت وراءها الصبر، ولو تأمّلت في كلّ إخفاقاتك، وكلّ هزائمك، وكلّ ذنوبك وخطاياك، لوجدت وراءها قلّة الصبر.

أيّة مدرسةٍ عجيبةٍ للنجاح في تجربة الحياة هو الصبر! ثمّ أيّة مدرسةٍ عجيبةٍ للنجاح في تجربة الصبر هي الصلاة؟

إن أصابتك سرّاءٌ فصبرتَ على نعمتها، ولم يأخذْك البطر والغرور، كان خيراً لك في دينك ودنياك،

وإن أصابتك ضرّاءٌ فصبرت على لأوائها، ولم يأخذْك اليأس والضعف، كان خيراً لك في دينك ودنياك،

وإن هممت بخيرٍ فصبرت على مشقّته وتكاليفه، ولم يعترِكَ الوهن والتردّد، كان خيراً لك في دينك ودنياك،

وإن استزلّك الشيطان لسوءٍ فصبرت على وسوسته، ولم تستسلم لمغرياته، كان خيراً لك في دينك ودنياك،

وإن أخفقت في عملٍ أو امتحانٍ، فصبرت وأصررت وأعدت المحاولة، كان خيراً لك في دينك ودنياك،

وإن أسيء إليك فصبرت وكظمت غيظك واغتفرت لمن أساء، كان خيراً لك في دينك ودنياك.

وأخيراً، من حقّنا أن نسأل: وهل هناك من عملٍ نافعٍ في هذه الدنيا لا نحتاج فيه إلى فضيلة الصبر؟ أيّة مدرسةٍ في الدنيا تدرّبنا على الصبر، أفضل من مدارس العبادات، وعلى رأسها مدرسة الصلاة؟

يقول نبيّنا الكريم ﷺ: «**أوّلُ شيءٍ يُرفعُ من هذه الأمّةِ الخشوعُ**»، وكأنّما حين رُفع الخشوع من صلاتنا رُفع معه الصبر، وحين رُفِع الصبر رُفعت معه حضارة هذه الأمّة.

أوَلم يؤكّد لنا تعالى هذه الحقيقة الخالدة التي تربط بين فلاحنا في الأرض واتّصالنا، في خشوعنا، بالسماء؛ حين قال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون: ١ - ٢]

اسأل نفسك بعد كلّ صلاة: ما مقدار شحنة الصبر التي خرجت بها من هذه الصلاة؟

* * *

لماذا نصلّي؟

لماذا الصلاة؟ أمِن أجل الصبر وحده؟

لماذا نضيّع من وقتنا ساعةً أو ساعتين كلّ يومٍ لأداء حركات غريبة، وترديد كلمات ردّدناها قبل ذلك مئات المرات؟ أما كان من الأفضل لنا أن ننفق هذا الوقت في مساعدة الآخرين أو أداء أيّ عملٍ آخر مفيدٍ من الأعمال الخيريّة أو الإنسانية؟ ماذا لو لم تكن هناك صلاة؟

تصوّروا لو تعطّلت الآن فجأةً كلّ هواتف العالم، الأرضيّة والخليويّة، وانقطعت كلّ الاتّصالات السلكيّة واللاسلكيّة، وتوقّفت المحطّات الفضائيّة والأرضيّة والإنترنت، وتعطّلت كلّ الطرق البرّية والبحريّة والجوّية ووو.. تُرى ماذا سيحدث للعالم؟ أيّة فوضى، وأيّ إحباط، وأيّ ضياع، وأيّ انهيارٍ اقتصاديٍّ واجتماعيٍّ وسياسيٍّ وثقافيٍّ وحضاريّ؟

هذا هو الدور الذي تقوم به الصلاة بيننا وبين خالقنا، فهل نستطيع الاستغناء عنها يوماً واحداً؟ ماذا لو انقطع خطّ الاتّصال الساخن بيننا وبين الله؟ إذن لكان علينا أن نعيد بأنفسنا اختراع ذلك الجهاز الاتّصاليّ العجيب الذي منحنا الله إيّاه.

هل سنجد شكلاً أفضل من هذه "التركيبة" أو "الوصفة" المتفوّقة الصنع التي رُكّبت منها الصلاة؟ أيّة إجراءاتٍ غير عاديّة، وأيّة تركيبةٍ

فريدةٍ، وكلماتٍ دقيقةٍ مختارةٍ، وحركاتٍ مميَّـزةٍ ومعـبّرةٍ جـاءت عليهـا هذه الصلاة؟



الصلاة تعيد برمجتنا

مثلما تحُـتّ الأمـواجُ المتدافعـة صـخورَ الـشاطئ عـلى مـرّ الأيّـام والسنين؛ هكذا تمارس فينا الحيـاة، متمثّلـةً بـالزمن والألفـة والتكـرار والاعتياد، عمليّة الحتّ في صخورِ ما حقّقته الصلاة في نفوسنا من قـوّةٍ وتوازنٍ وتنقيةٍ من أدران الحياة اليوميّة، فتحاول هذه العناصر الدنيويّـة بأمواجها المتلاحقة برمجتَنا وفقاً لخطّ أهوائها، ساعةً إثـر سـاعة، ويومـاً بعد يوم، وعاماً بعد عام، بحيث لا نـشعر أنّنـا قـد تغيّرنـا مـع الـزمن، وابتعد بنا المطاف عن النسخة الفطريّـة الأصـليّة مـن البرنـامج الإلهـيّ الموضوع لنا، ذلك "القرص النورانيّ" الذي يخلو من أيّ (فـيروس) قـد يحرف مسار البرنامج الأصلي بعيداً عن أصله السماويّ:

- إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ -أي يهـترئ- في جَـوْفِ أحـدِكُمْ كَـما يَخْلَـقُ الثّوبُ، فاسْأَلُوا اللهَ تعالَىٰ أنْ يُجَدِّدَ الإيـمانَ في قُلـوبِكمْ [صـحّحه الألباني في صحيح الجامع، عن عبد الله بن عمرو].

ومن فضل الله علينا، أنّنا، ومن دون سـائر الأمـم والأديـان، مـا نزال نحتفظ بالنسخة الأصليّة من هـذا "القـرص النـورانيّ" لبرنـامج

إيماننا، بحيث نستطيع الرجوع إليه، وإعادة برمجة نفوسنا عليه، فنعيد ترميمها، ونزيل عنها كلّ ما تسرّب إليها من (فيروسات) أو انحرافات أو أمراض.

إنّها النسخة التي حفظت لنا حتّى الآن برنامج القرآن الكريم كما أنزل تماماً، من غير تبديلٍ ولا تحريفٍ ولا زيادةٍ ولا نقصان، والنسخة التي حفظت لنا، دون سائر الأديان، وبالرواية الحرفيّة المحقَّقة والمتعدّدة المصادر والرواة، برنامج الصلاة النبويّة الشريفة قولاً وعملاً، والذي يلخّص لنا نبيّنا الكريم ﷺ حقيقته بأربع كلمات:

- صلّوا كما رأيتموني أصلّي [صححه الألباني في صحيح الجامع، عن مالك بن الحويرث الليثي].

تُرىٰ، لو لم تكن هناك صلاة، هل كان بإمكاننا أن "نخترع" صلاةً تصلنا بهذا المدبّر الكبير لحياتنا والمنظِّم القدير لعالمنا وكوننا؟ وفي أيّ شكلٍ تتصوّرون أن يكون هذا "الاختراع" البشريّ الهامّ في وسائل الاتّصالات يا تُرىٰ؟ لا تتعبوا كثيراً في التفكير، لقد فعل ذلك غيرنا.

لو بحثتم في التوراة والإنجيل، كما هما الآن بين أيدينا، فلن تجدوا فيهما أيّة تفاصيل عن طبيعة صلاة موسىٰ أو صلاة المسيح، عليهما جميعاً السلام، بحيث يستطيع أتباعهما الاقتداء بهما في هذه الصلاة، فكان بدهيّاً لهؤلاء أن يخترعوا صلاةً هي هذه الصلاة التي يؤدّونها اليوم وقد ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.

ولكن، ما الذي سيفتقده مصلّيهم، والأمر هكذا، أكثر ما يفتقد؟ إنّه من غير شكّ؛ سيفتقد وهو يصلّي تلك المتعة الرائعة التي يشعر بها المصلّي المسلم، ولا تعدلها في الحقّ أيّة متعة، إنّها متعة الشعور بأنّه إنّما يردّد صلاةً أخذها نبيُّه مباشرةً عن الله سبحانه.

ليس في التوراة أو الإنجيل أيّ وصفٍ لصلاة هذين النبيّين الجليلين يستطيع أتباعهما الاستناد إليه في صلاتهم. إنّ كلّ ما في الإنجيل، مثلاً، أنّ أحد تلامذة المسيح عليه السلام قال له: "علِّمنا أن نصلّي كما علَّمَ يوحنّا (المعمدان) تلاميذه، فقال لهم يسوع: متى صلّيتم فقولوا.." وتلا عليهم دعاءً من ٣٥ كلمة (حسب رواية إنجيل لوقا، وهو ٤٢ كلمة حسب رواية إنجيل متّى) [متّى: ٦: ٩-١٣، ولوقا: ١١: ٢-٤]. وهذا شأنهم مع الصوم أيضاً، فكلّ فريقٍ يقترح لنفسه شروطه وقواعده ومسموحاته وممنوعاته ومدّة صيامه وأوقاته، وهي تتغيّر باستمرار، بين بلدٍ وآخر، وبين زمنٍ وآخر.

كثيراً ما ترى بعض المسلمين يتغاضبون ويحتدّون فيما بينهم بسبب خلافٍ حول تفاصيل صغيرةٍ في صلاتهم: هل نرفع يدينا، مثلاً، مع كلّ تكبيرة، أم مع بعضها دون بعض، أم مع تكبيرة الإحرام وحدها؟ أين نضع يدينا أثناء الوقوف: عند السرّة؟ فوق السرّة؟ أعلى بقليل؟ وهكذا حول تفاصيل أخرى في الصلاة كثيراً ما تؤدّي بهم إلى التشاجر والتنافر والخصام. أمّا أنا فأشعر، صدّقوني، بالغبطة

والسعادة! كيف، وقد وصلت إلينا صورة الصلاة عن نبيّنا الحبيب ﷺ كاملةً ومفصّلة، ومتكرّرةً في رواياتٍ عريضةٍ عديدةٍ عن الصحابة عن رسول الله ﷺ إلىٰ حدّ الاختلاف أحياناً علىٰ مثل هذه التفاصيل الصغيرة والكثيرة والدقيقة. إنّ كلّ الأحكام في الإسلام نزلت من السماء إلىٰ الأرض، إلاّ الصلاة، لقد اختار لها ربّ العالمين أن يرتفع نبيّه إليه في السماء ليتسلّمها منه هناك بنسختها الإلهيّة الأصليّة ويعود بها إلىٰ الأرض هديّةً للمسلمين.

الله.. أيّة هديّةٍ رائعةٍ من السماء تجعلنا نستمتع بهذه الكنوز التي امتلأت بها مراجعنا ورواياتنا؛ إلىٰ حدّ الاختلاف علىٰ بعض تفاصيلها هنا أو هناك؟! وأيّ نبيٍّ أمينٍ هذا الذي حملها إلينا كاملةً كما تسلّمها من ربّه، من ربّه مباشرةً وهناك في السماء، وحرَص علىٰ أن ينقل لنا هذه التفاصيل الدقيقة عن خارطة وصناعة أعجب وأسهل وسيلة نقلٍ في التاريخ البشريّ؛ تخترق بنا طبقات الفضاء العليا إلىٰ حيث الله!!

هل تدركون قيمة أن يكون لدينا صورةٌ تفصيليّةٌ كاملةٌ للصلاة، تماماً كما تسلّمها نبيّنا ﷺ من ربّه ليلة معراجه إلىٰ السماء، تتّفق علىٰ خطوطها العريضة، بل أحياناً علىٰ تفاصيلها الصغيرة، كلّ مذاهب المسلمين؟

وهل تدركون الفرق بين شعور المصلّي الذي يدرك أنّ ما يردّده في صلاته من كلمات، وما يقوم به من حركات، وما يلتزم به من

أوقات، وما يقوم به من ممارساتٍ واستعداداتٍ وإجراءات، قُبيل الصلاة، وأثناءها، وبُعيدها، إنّما هو نقلٌ حرفيّ عن الله تعالىٰ نقله إلينا بدقّةٍ وأمانةٍ متناهيتين رسولُنا الأمين ﷺ، وبين شعور المصلّي الآخر، أيّ مصلٍّ في هذا العالم، وهو يعلم أنّه حين يصلّي إنّما يمارس اجتهاداتٍ بشريّةً وضعها له، أو اخترعها، بشرٌ مثله بذلوا جهودهم الإنسانيّة المتواضعة لاختراعِ جهازٍ بشريٍّ يصلهم بإلههم؟

أتدركون عظمة المتعة لدىٰ المصلّي المسلم، وشعوره الرائع بالاطمئنان والأمان والثقة بوصول صوته إلىٰ الطرف الآخر علىٰ الخطّ، وهو يمارس الاتّصال مع الله بهذا الجهاز الإلهيّ الذي لا يخطئ، وقد صمّمه وصنعه وأهداه له ربّ العالمين: هكذا تطهّر، هكذا اتّجه، هكذا استعدّ، هكذا ابدأ، هكذا ردّد، هكذا تحرّك، هكذا اختتم..؟

وأكثر من هذا، هل تدركون أهمّية وجود "سُنّة" في الإسلام تغطّي تفاصيل كلّ شيءٍ في حياتنا من خلال وصفها لكلّ شيءٍ في حياة نبيّنا ﷺ؟

لن يعرف قيمة السنّة إلا من أدرك حرمان الأديان الأخرىٰ منها، وإنّني لأعجب أشدّ العجب، كما أشفق أشدّ الإشفاق، علىٰ هؤلاء الذين نادوا، متأثّرين بتلك الأديان من غير أن يدركوا ذلك، باستغناء المسلم عن السنّة واكتفائه بالقرآن الكريم!

أيّ كنزٍ وأيّة خصوصيّةٍ وأيّ غطاءٍ دافئٍ وطريقٍ سالكةٍ آمنةٍ واضحةٍ يريدون أن يجرّدوا الإسلام منها، وكأنّه تعالىٰ لم يخصّ "السنّة"

بعشرات الآيات من كتابه الكريم، ولم يدعُنا بإلحاحٍ إلى اتّباعها والتمسّك بها والاقتداء بصاحبها ﷺ حين قال لنا:

- ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

- ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

بل حين ساوى بين طاعتنا له وطاعتنا لنبيّنا ﷺ:

- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وحين أكّد ارتباطنا بسنّة نبيّه ﷺ وسمّى لنا هذه السنّة "أُسوةً حسنةً":

- ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

من هنا تأتي أهمّية السُنّة، ومن هنا تتّضح لنا أهمّية صلاتنا وأهمّية أدائنا لها بكامل حركاتها ونصوصها وتفاصيلها. إنّها نسخةٌ أصليّةٌ لبرنامجٍ إلهيٍّ كامل، مركّز، سريع الفعالية وقصير المدى، لإعادة برمجة نفوسنا خمس مرّاتٍ كلّ يوم، وهو تكرارٌ كافٍ للقضاء على أيّ فيروسٍ يتسلّل إلى حاسوب حياتنا في ساعات الليل أو النهار، ويزوّدنا بجدارٍ تحصينيٍّ يردّ عنّا فيروس الانحراف الذي ما يفتأ يراودنا عن أنفسنا وعن فطرتنا الإلهيّة، من ناحية، كما يقوم بإطفاء حرائق غابات الذنوب والأحزان التي تشتعل في كلّ ركنٍ من أركان حياتنا الدنيويّة، من ناحيةٍ أخرى:

- تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم الصبحَ غسَلَتْها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم الظهرَ غسَلتْها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم العصرَ غسَلتْها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم المغربَ غسَلتْها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم العِشاءَ غسَلتْها، ثم تنامون فلا يُكتبُ عليكم حتّىٰ تستيقظوا [صححه الألباني في صحيح الترغيب، عن عبد الله بن مسعود].

سألتني طبيبةٌ يابانيّةٌ شابّة: أصحيحٌ أنّ المسلمين يصلّون خمس مرّاتٍ كلّ يوم؟ أجبتها: نعم. قالت بنبرة دهشةٍ هي أقرب إلىٰ الاحتجاج: وكيف تستطيعون هذا؟ أليس هذا كثيراً جداً؟ قلت: أنت طبيبة، وتقابلين وتعالجين عدداً كبيراً من المرضىٰ خلال عملك، فكم مرّةً تطهّرين يديك كلّ يوم؟ قالت: ثلاثين.. خمسين.. ونظرتْ إليّ وقد قرأت في عينيها أنّها أدركت ما أريد أن أقول؛ قبل أن أقوله.

- قُمْ فصلِّ، فإنّ في الصلاةِ شفاءً [رواه ابن ماجه، عن أبي هريرة].

الحياة من حولنا مليئةٌ بالفيروسات، من إغراءاتٍ وإغواءاتٍ وضعفٍ إنسانيٍّ وانحرافٍ ونزعاتٍ شيطانيّة، وطهور كلّ ذلك ليس الماء بل الصلاة. الماء يطهّر أجسادنا من الخارج، والصلاة هي الأداة التي تستطيع أن تطهّرها من الداخل. إذا أحسّ المصلّي أنّه خرج من صلاته مثلما دخلها، ولم يشعر أنّ شيئاً ما في داخله قد تغيّر، أو أنّه قد تخلّص من كثيرٍ ممّا علق به من شوائب الخطايا، أو لم يشعر وكأنّه قد

وُلد من جديد، فهذا يعني أنّه لم يستعمل قرص "إعادة البرمجة" الذي استخدمه في هذه الصلاة بشكلٍ سليم، بدليل أنّ الفيروسات ما تزال هناك تُلوّث أعماق ذاته، وسينصرف الآن من صلاته ليعود إلىٰ ما كان عليه من ضعفٍ إنسانيٍّ وتشوّهٍ وانحراف.

لو قارنّا بين حياة المصلّي وحياة غير المصلّي لأشفقنا علىٰ هذا الأخير من فقدانه لهذا السلاح الهامّ الذي يستعين به في كلّ ملمّةٍ أو حدثٍ أو مصيبةٍ تواجهه في يومه، وما أكثرها، ولَعجبْنا من أمرِ المصلّي، المصلّي الحقيقيّ، ومن أمرِ وجهه الذي يظلّ مضيئاً مهما ادلهمّت أمامه الدروب، ولأخذتْنا الحَيرة من عينيه السمحتين اللتين تنطبعان بالرحمة والتواضع واللين، مهما اشتدّت عليه المحن، حتّىٰ لتكاد تميّز، وأنت تنظر في وجوه من حولك، المصلّي من غير المصلّي، وكأنّ هذه الرحمة التي تَغشىٰ عينَي الأوّل باستمرار؛ هي ما تشير إليه الآية الكريمة وهي تتحدّث عن (سِيما) السجود في وجوه المصلّين:

- ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

إنّها، والله دائماً هو الأعلم، ليست تلك العلامة السوداء التي نراها علىٰ جباه بعض الناس، كما يحلو لبعضنا أن يفهمها، ولو كانت هي المقصودة لكانت الآية (سيماهم في جباههم). إنّها الملامح المضيئة السمحة في الوجه، تلك التي لا يحظىٰ بها إلاّ المصلّي، ولا تخطئ فراسةُ

المؤمن رؤيتَها في وجوه المصلّين.

إنّ جميع العبادات المطلوبة منّا ما هي في حقيقتها إلاّ "إعادة برمجةٍ" لنفوسنا، علىٰ اختلافٍ في وظيفة هذه العبادات ومداها الزمنيّ.

الصيام برنامجٌ طويل "التنزيل" في كومبيوتر نفوسنا، ولكنّه طويل الفاعليّة. إنّه يحتاج إلىٰ شهرٍ كاملٍ لتنزيله، ولكنّ فاعليّته تمتدّ إلىٰ عامٍ كامل. نحن نعيد بالصيام برمجة شهواتنا التي أُثقلت بالفيروسات علىٰ مدىٰ العام الفائت، ونعيد برمجة أبصارنا التي لا بدّ أن يكون الضعف الإنسانيّ أمام مغريات الشيطان قد أوهنها مع الزمن، ونعيد برمجة لساننا وقد اختلط عنده، مع مرور الشهور، الخطأ بالصواب والحلال بالحرام والخبيث بالطيّب والحقّ بالباطل، ونعيد برمجة نفوسنا التي تسرّبت إليها علىٰ مدىٰ العام أشكالٌ من الأدواء الشيطانيّة كادت تقتل فينا بذور الرحمة والحقّ والعدل وحسن الظنّ والرضا والقناعة والتواضع والصبر والبرّ والشكر وحلاوة الإيمان وحسن الخطاب.

وهي أيضاً وظيفة الحجّ، ولكن علىٰ مدىً أطول وأعمق. فالحجّ المبرور «**ليس جزاؤه إلاّ الجنّة**» ومن تقبّل الله منه حَجّته عاد من ذنوبه «**كيومِ وَلدتْه أمّه**» كما وعدنا الرسول الكريم ﷺ. من هنا تتسارع صلوات اليوم شيئاً فشيئاً مع تسارع هجمات شياطين الحياة عليك: تصلّي الفجر أوّلاً، ثمّ تنتظر نصف نهارٍ كاملاً قبل أن تصلّي الظهر، ولكنّ المهلة التالية ستكون أقصر، فالنصف الثاني من النهار ستتوسّطه

هذه المرّة صلاةُ العصر قبل أن تختتمه بصلاة المغـرب، ثـمّ مـا هــي إلاّ ساعةٌ وبعض الساعة حتّىٰ تجد نفسك مع صلاة العشاء، ثـمّ تنـصرف إلىٰ النوم.

هذه هي خـصوصيّة الـصلاة، وهــذا بعـضٌ مـن أسرار تقـارب أوقاتها وتكرارنا لها خمس مرّاتٍ كلّ يوم. فأين تجدون، في كلّ مـصانع السلاح في العالم وأحـدثها وأتقنهـا، سـلاحاً فعّـالاً، ودقيـق الرمايـة، ومضمون إصابة الأهداف، ويضمن النصر لـصاحبه، ويحقّـق النتـائج المرجوّة منه وأكثر، مثل هذا السلاح؟



إيقاع الصلاة وإيقاع الحياة

في الشتاء يبحث المرء عن الدفء، وفي الصيف عن الـبرودة، وفي المرض عن الدواء، وفي الجوع عن الطعام، وفي العطش عـن المـاء، وفي الضجّة عن الهدوء، وفي الخوف عن الأمان..

وإذا كانت عجلة الحياة متسارعة، بل هي أكثر ما تكون تـسارعاً في هذا العصر الآليّ والإلكترونيّ الساحق، وإذا كان لصَلاتنا أن تكـون ملجأً لنا يحمينا من عجلة الحياة أن تدوسنا وتأكلنا بأسـنانها الحديديّـة الصلبة، فبدهيّ أن تكون العجلة المضادّة التي تقدّمها لنا الصلاة أشـدّ ما تكون استرخاءً وهدوءاً ودعةً واستسلاماً.

هل تصوّرتم أن يطابق إيقاع الصلاة إيقاع الحياة، وبالوتيرة السريعة، وربما المجنونة نفسها؟ إذن لانقلبت الصلاة، كما يحدث حقاً مع الكثيرين، إلىٰ عبءٍ آخر من أعباء الحياة ينضمّ إلىٰ الأعباء الميكانيكيّة الأخرىٰ، ويثقل كاهلنا بما يستهلكه من وقتٍ إضافيّ وجهدٍ وحركةٍ وأعصاب، فنسعىٰ إلىٰ إنجازه والتخلّص منه بأسرع وقت، تماماً كما تعاملنا مع الميكانيكيّات الأخرىٰ، بل ربّما سعينا، علىٰ ضوء هذه النتائج غير المشجّعة إطلاقاً، إلىٰ إلغاء هذا "الواجب" الميكانيكيّ الإضافيّ من حياتنا بالكامل، كما يحدث حقاً لكثيرٍ من المسلمين؛ إذ لا مساحة في حياتنا لمزيدٍ من تلك النوعيّة من "الواجبات" المزدحمة.

أعرف أنّ الأمر لن يكون سهلاً علينا في البداية.. فكيف لنا أن نبطئ؛ وألف عملٍ وواجبٍ ومسؤوليّةٍ وموعدٍ وبرنامجٍ واجتماعٍ وزيارةٍ واستقبالٍ ودراسةٍ وقرارٍ تنتظرنا عند الباب؟!

إذا كانت هذه طريقة تفكيرنا حقاً ونحن نستعدّ للتحليق في فضاء الصلاة؛ فلن نستطيع عبور قشرة الفضاء الخارجيّ بمركبة صلاتنا أبداً، وستحترق المركبة بنا قبل أن تنطلق:

- ارجِعْ فصلِّ فإنّك لم تُصلِّ [رواه البخاري، عن أبي هريرة].

علىٰ هذا الأساس؛ سيكون من الطبيعيّ لصلاة النهار السرّية، التي ينخفض فيها صوت المصلّي بالقراءة، أن تتناسب عكساً، بطبيعتها السرّية هذه، مع علوّ إيقاع الحياة في ذلك الجزء الصاخب من اليوم:

ارتفاع أصوات البشر، ارتفاع ضوء الشمس وحرارتها، ارتفـاع إيقـاع الحركة من حولنا، واشتداد وتـيرة العمـل والنـشاط والانـدفاع نحـو الكسب والإنجاز المادي الملحّ والسريع والمتزاحم.

أمّا صلاة المساء فمن الطبيعيّ أن تتناسب عكساً مع صمت الليـل وهدوئه وسرّيته وظلامه، ومع تبـاطؤ عجلـة الحركـة، وتراجـع وتـيرة السعي والعمل وطلب الرزق، وتوقّف طاحونة الحيـاة عـن الـضجيج والدوران، فتأتي قراءتنا الجهريّة لتملأ بعض هذا الفراغ، ولتعيد التوازن في أواني نفوسنا المستطرقة، ولتحافظ في داخلنا على معادلة إيقاع الحياة، ومن ثمّ، لتضبط فينا وتيرة الصوت والصورة والحركـة، فتحقّـق لـدينا التوازن النفسي، في الوقت الذي نكون فيه قد قاربنا أن نفقده.

نختتم يومنا بصلاة العشاء، هنا حيث الطـول، وحيـث التنـوّع. فأمامنا الآن أربع ركعـاتٍ طويلـةٍ نـؤدّي اثنتـين منهـا بقـراءةٍ جهريّـةٍ تتناسب عكساً مع سرّية الليل وسكونه، وكأنّ النهار قد تراجع ليـترك أمامك الفضاء اللازم الذي تستطيع أن تملأه بصوتك وتجأر به إلى الله. ثمّ تتلو الصلاةَ ركعتا سنّةٍ، ثـمّ ركعـةٌ، أو ركعـاتٌ، الـوتر، إذ لـك أن تجعل هذه الأخيرة واحدةً أو ثلاثاً أو خمساً أو أكثر، وهـذا الانفتـاح في العدد، شأن كثيرٍ من عباداتنا كما سـوف نـرى، رخـصةٌ مرنـةٌ لإطالـة الصلاة، إطالةً قد تتناسب مع ما تستشعره من حجم ما تـراكم عليـك من أدران النهار، وما تخشى أن يتراكم عليك ويهاجمـك ويغريـك مـن نزغات شياطين الليل.

لاحظ هنا أنّ السنن تكثر في صلواتنا حيث تكثر الفروض، وتقلّ حيث تقلّ. إنّ هذا يوضّح لنا بعض الشيء الحاجة إلىٰ تناسب عدد الركعات في كل صلاة مع تبدّل أوضاعنا الحياتيّة، ومن ثم درجة ارتفاع حاجتنا إلىٰ الاتصال مع الله خلال النهار أو الليل، أو أثناء الأزمات العابرة.



التنوّع: المدرسة الحضاريّة الأولىٰ

هل حدث أن تساءلتم كما تساءلتُ مرّةً: لمَ جاءت صلواتنا هكذا مختلفة الطول وعدد الركعات والحركات والقراءات والأوقات والأسماء والأنواع؟ لمَ لم تكن ذات شكلٍ واحدٍ وطولٍ واحدٍ ولونٍ واحدٍ كصلوات كثيرٍ من الأديان الأخرىٰ؟ لمَ هذا التنوّع و "التعقيدات" و "الصعوبات" و"الإرباكات"؟ لمَ يختلف عدد الركعات بين فجرٍ وظهرٍ وعصرٍ ومغربٍ وعشاء؟ ولمَ تتنوّع بين فرضٍ وسنّةٍ ووِتر؟ وبين سنّةٍ قبليّةٍ وبعديّة؟ ومؤكّدةٍ وغير مؤكدة؟ ونهاريّةٍ وليليّة؟ وسرّيةٍ وجهريّة؟ وجماعيّةٍ وفرديّة؟ إنّها تبدو بهذا وكأنّها مادّةٌ دراسيّةٌ صعبةٌ وعالية المستوىٰ؛ يحتاج من يصلّي إلىٰ أن يخوضها ويتقنها بأكملها حتّىٰ يعرف كيف يصلّي. أليس في هذا تصعيبٌ علىٰ الصغار والقصّر والأمّيين والجهلة؟ فكيف وقد نزل الإسلام في أمّةٍ أمّيةٍ لا تقرأ ولا تكتب؟

إنّ عقولنا البشريّة القاصرة لـن تحـيط بالحكمـة الإلهيّـة الكـبرىٰ وهي تحاول البحث عـن أجوبـةٍ لهـذه التـساؤلات، ولكنّنـا، بوصـفنا مسلمين، مأمورون أن "نفكّر" وأن "نعقـل" وأن "ننظـر" في حِكَـم الله فيما أراد لنا، محاولين أن نصل إلىٰ بعضها إن لم نصل إلىٰ كلّها.

كم تساءلنا وتساءل العالم معنا: كيف استطاع الإسـلام أن ينقـل العـرب، وبهـذه الـسرعة القياسـيّة التـي تخطّـت حتّـىٰ سرعـة ثـورة الكومبيوتر اليوم، من أمّةٍ يحتاج فيها مـن يقـرأ رسـالة، لـو حـدث أن كُتبت رسالةٌ في ذلك اليوم، لأن يسافر كي يجد من يقرأها لـه، إلىٰ أمّـةٍ أسّست، فيما لا يزيد علىٰ عِقدين أو ثلاثـة عقـودٍ مـن الـسنين، لعلـوم اللغة، والنحو، والصرف، والمعـاجم، والبلاغـة، والنقـد، والتفـسير، والقــراءات، والحــديث، والفقــه، والــسيرة، والرجــال، والأرض، والتــاريخ، والجغرافيــا، والفلــسفة، والمنطــق، والطــب، والفلــك، والحساب والرياضيات، وعدّ ما شئت من علوم؟

كان للصلاة دورها في هذا التسارع العجيـب في ولادة الحـضارة الإسلاميّة الذي لم يعرفه تاريخ الحضارات قبل ذلك، ولا بعد ذلك.

لقد كان هذا التنويع الـصعب في حركـات الـصلاة، والقـراءات فيها، وطرق قراءتها، وأوقاتها، وأشكالها، وأعداد ركعاتها، وأنواع هذه الركعات، هو المدرسة الأولىٰ التي يـمارس فيهـا دمـاغ الطفـل المـسلم تدريباته الفيزيائيّـة لتوسـيع خلايـا الـدماغ وتهيئتـه للتفكـير والحفـظ والتحليل والابتكار والإبداع. إنّها مدرسةٌ تتعلّم فيهـا أدمغـةُ أطفالنـا

كيف ترتّب أفكارها، وتشعّب مسائلها، وتبوّب موضوعاتها، وتحلّل معطياتها، وتؤسّس علومها وآفاقها الحضاريّة.

ألم يستطع الإسلام، بمثل هذه الميكانيكيّة التعليميّة، أن يحوّل هؤلاء الأمّيين، لا أقول إلىٰ إمبراطوريّة، فكم من الإمبراطوريّات لم تعرف إلاّ الغزو والفتك والقتال، كالمغول والتتار، وإنّما إلىٰ حضارة متكاملة الفكر والثقافة والعلوم والأخلاق؟

التلميذ هنا في الغرب يدخل المدرسة في سنّ الخامسة، وفي معظم بلداننا العربيّة والإسلاميّة في سنّ السادسة، أمّا مدرسة الإسلام فيدخلها في سنّ السابعة، السنّ التي أُمِرنا أن نأمر فيها أولادنا بالصلاة.

الصلاة، بهذا التنويع، تعني أنّ علىٰ كلّ مسلمٍ أن يدخل مدرسة العلم والتفكير والثقافة والحضارة والبناء في مثل هذه السنّ المبكّرة، وبكلّ ما تعنيه المدرسة من مسؤوليّة، واستيعاب، وحفظ، واستعداد، وتحضير، وتخطيطٍ للنجاح والتفوّق والإبداع، فلا أمّية بعد الآن، ولا جهل بعد الآن، ولا كسل ولا استرخاء ولا تقاعس ولا استسلام للجهل المتوارث. أنت مسلم؛ إذن أنت متعلّم. أنت مسلم؛ إذن أنت حضاريّ.

المادة الأولىٰ التي يجب أن تدرسها في مدرسة الإسلام؛ وتتقنها وتنجح فيها، ثمّ أن تمارسها وتعيشها، هي مادة الصلاة. لا بدّ من

حفظ أعدادها، وأوقاتها، وأسمائها، وأنواعها، وأشكالها، وحركاتها، ونصوصها، والتزاماتها، ومباحاتها، ومحظوراتها، ثمّ لا بدّ، حتّىٰ تكون مسلماً حقيقيّاً، أن تبدأ بممارستها حال إتقانك لدروسها وتخرّجك من مدرستها، علىٰ عكس ما يجري اليوم في مدارسنا وجامعاتنا من دراسةٍ وتعليمٍ وحفظٍ نجدها تمّحي من حياة الطالب العمليّة، أو تكاد، بعد انتهاء حياته المدرسيّة أو الجامعيّة؛ لتكون الشهادة التي يحملها مجرّد وسيلةٍ للبحث عن عملٍ أو رزق.

هذه المادّة الأولىٰ في مدرسة الإسلام، جنباً إلىٰ جنبٍ مع مادّة القرآن الكريم وإتقان قراءته وتجويده واستظهاره، ثم حفظ الحديث النبويّ الشريف، ستقود المسلم الصغير بشكلٍ تلقائيٍّ إلىٰ دراسة الموادّ الأخرىٰ من علوم الإسلام، واستيعاب ما يجب أن يستوعبه منها، وحفظ واستظهار ما يجب أن يحفظه منها، وهذا سيكون مدخله بعد ذلك إلىٰ فهم علوم الحياة والغوص فيها واكتشاف أسرارها.

الصلاة تعني للمسلم ثقافةً وعلماً، ومن ثمّ: حضارة، وإلاّ؛ فكيف تفسّر ظاهرة تفوّق الطلبة الذين نشأوا في بيتٍ يصلّي في كثير من الأحيان؛ علىٰ أولئك الذين نشأوا في بيتٍ خلا من الصلاة؟

ولكنّ لهذا التنوّع وظيفةً أساسيّةً ومهمّةً أخرىٰ في الصلاة غير هذه الوظيفة الحضاريّة، الأساسيّة والمهمّة أيضاً، إنّه الخشوع.

أهمّية التنوّع للخشوع

كلّ ما فيه تكرارٌ أو رتوبٌ أو ميكانيكيّة سينتهي بنا إلىٰ فقدان الوعي الذهنيّ والانفلات من القيود الفكريّة، ومن ثمّ إلىٰ الشرود، وربّما النوم.

هل لاحظت وأنت تقود سيّارتك علىٰ الطرقات العالية العريضة المستقيمة الممتدّة؛ كيف يساورك النعاس والملل، وربّما الشرود: شكلٌ واحدٌ للطريق لا يتغيّر، وسرعةٌ واحدةٌ لا تكاد تزيد أو تنقص؟ إنّ العدوّ الأوّل للخشوع والاستغراق في الصلاة والتفكّر في معانيها، للوصول من خلالها إلىٰ الله، هو الاستسلام للألفة والعادة، وعدم استثمار التنويع أحسن استثمار، فيما تسمح لنا به هذه العبادة من أنواع التنويع، والإصرار علىٰ السير في "الطريق العالية" الجامدة وليس في الطرق الفرعيّة الحيّة ذات المنعطفات المتنوّعة والمتبدّلة باستمرار.

إنّ هذا التنوّع في عدد ركعات الصلوات الخمس، واختلاف أوقات هذه الصلوات، واختلاف طبيعة القراءة فيها، وكذلك اختلاف أوضاع الجسم وحركة الأعضاء في الصلاة، واختلاف القراءة مع اختلاف حركات الجسم، وغيرها كثيرٌ ممّا أحصيناه من فنون التنوّع، من شأنه أن يجنّبنا احتمالات الشرود أو انصراف الذهن

عـمّا نمارسـه أو نقولـه في الـصلاة، وأن يُبعـد عـن نفوسـنا الرتـوب والجمود، ومن ثمّ، أن يجعلنـا أكثـر وعيـاً لمـا نقـول، وأشـدّ خـشوعاً وإحساساً بالصلة مع الله أثناء أدائنا لهذا الركن الأساسيّ مـن عباداتنـا اليوميّة، فضلاً عن أنّه تدريبٌ عمليّ رائـعٌ للـدماغ يعـدّه للمزيـد مـن الدروس التي كانت دائماً، ويجب أن تظلّ، الأرض التي ننطلق منها في بناء الحضارة الإنسانيّة.

درس الصلاة، بتنوّعه الفريد هذا، ليس درساً سهلاً، ومتى كـان بناء الإنسان عملاً سهلاً، وتأسيس الحـضارات أمـراً بـسيطاً، وإقامـة الدول وتشييدها ممّا يتحقّق بغير هذه الروح، ويُنجـز بغـير مثـل هـذه الهمم العالية؟

تُرى، ألِمثل هذا التنوّع العجيب في الركن الثاني لديننا، ولمثل هـذا "الدرس الصعب" الذي كان على الطفل المسلم أن يتلقّـاه منـذ بلوغـه الـسابعة، شـاء ربّ العـالمين أن "يـستدعي" نبيّنـا العظـيم إليـه عنـد سـدرة المنتهـى ليلقّنـه هـذا الـدرس الـصعب والطويـل والهـامّ مـن دروس الإسلام، على غير الطريقـة التـي اعتـاد أن يبلّغـه بهـا جبريـل ببقيّة الدروس؟

التنوّع هو مدرسةٌ للمرونة وقبول الآخـر. لقـد علّمتنـا المدرسـة النبويّة دروساً لا تُنسى في المرونة والتنـوع، سـواءٌ في الـصلوات أو في غيرهـا، ولا سـيّما في النوافـل. وهـذه المرونـة تمثّـل في الحقيقـة روح

الإسلام المتسامح المعتدل المتكيّف مع الزمن ومع البيئة ومع الظروف التي يمكن أن تتنوّع لدىٰ كلٍّ منا.



تبدّل الأوضاع والحركات.. لماذا؟

لم يأت تعدّد أوضاع الجسم في الصلاة وتنوّعها عبثاً، وإلاّ لكان بالإمكان أن نتلو كلّ شيءٍ في صلاتنا ونحن جالسون أو واقفون أو متّكئون أو مستلقون، من غير أن نضطرّ للقيام بأيّة حركة، علىٰ نحو صلاة المريض أو الضعيف مثلاً.

وفضلاً عن دور الحركات أثناء الصلاة في توفير عنصر "التنويع" وتجنيبنا خطر التكرار والرتوب والشرود، لنا أن نتساءل: لمَ قُرن تبدّل القراءة في الصلاة بتبدّل أوضاع الجسم، فاختصّ كلّ وضعٍ بقراءةٍ مختلفة؟ لماذا جاءت تسبيحة (سبحان ربّي العظيم) مثلاً مع (الركوع) وليس مع السجود، علىٰ حين ستصبح في السجود (سبحان ربّي الأعلىٰ)؟ ولماذا اختُصّ الوقوف بقراءة النصوص القرآنيّة، علىٰ حين اقتصر الجلوس علىٰ قراءة النصوص النبويّة (التحيّات والصلوات الإبراهيميّة)؟ ولماذا، ولماذا..؟

إنّ من شأن تغيّر أوضاعنا في الصلاة أن يساعدنا علىٰ التيقّظ والانشداد بوعيٍ كامل إلىٰ من اتّجهنا نحوه وبدأنا نتحدّث إليه. وكأنّي

بالصلاة، مع هذه الأوضاع المتبدّلة التي تصاحب القراءة، تدريبٌ على كيفيّة استيعاب ما نقرأ، ولتصدّق تطبيقاتنا وحركاتنا ما يخرج من شفاهنا، فيكون هذا بمثابة تأكيدٍ منا على اقتران قولنا بفعلنا، وعلى ثقتنا الكاملة وإيماننا الصادق بما نقول.

وبغضّ النظر عن فهمنا لهذه الأوضاع وفلسفتنا لها، مهما كانت هذه الفلسفة قاصرةً عن التفسير الإلهيّ الكامل والحقيقيّ لها، فإنّ من شأن هذه الحركات أن تحافظ على مواكبة خطّ الحركة في الصلاة لخطّ الكلمات، وهو أمرٌ هامٌ وأساسيٌّ في التدليل على صدقنا وإخلاصنا في التوجّه إلى من نخاطبه، كما سوف نرى.

وليست حركاتنا وحدها في الصلاة هي التي يمكن أن تشدّ نظر الآخرين إلينا، بل سكناتنا أيضاً. إنّ هذا الالتزام الكامل بالاتّجاه إلى القبلة طوال الصلاة، والمحافظة المستمرّة على النظر إلى موضع سجودنا، والمثابرة الصارمة على عدم الالتفات يميناً أو يساراً، والامتناع الكامل عن الردّ على من يكلّمنا أثناء الصلاة أو حتّى الالتفات إليه، مهما كانت الأسباب، بل إعلان المساحة بيننا وبين القبلة منطقةً محرّمةً لا نسمح لأحدٍ بالمرور فيها، كلّ هذا ممّا سيفاجئ الآخرين، ويجعلهم يميّزون أنّنا نعيش في الصلاة "حالةً خاصّةً جدّاً" لا تشبه، ولا تسمح بمشاركتها أو أن يتدخّل فيها أيّ أمرٍ من أمور الدنيا.

الأذان وعجائبه العشر

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر،

أشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله، أشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله،

أشهدُ أنّ محمّداً رسولُ الله، أشهدُ أنّ محمّداً رسولُ الله،

حيَّ على الزكاة، حيَّ على الزكاة........

هل سمعتم مثلَ هذا الأذان من قبل؟ ولا أنا.. فهو أذانٌ اخترعتُه لأحاول أن أنتشل نفسي وأنتشلكم من وهدة الأُلفة التي تحرمنا من سماع النص أو قراءته كما سمعه وقرأه بلال لأوّل مرّة.

الأذان، وكذلك الإقامة، هما بين ضحايا الألفة وطغيانها علينا، رغم ما فيهما وما في صيغتهما ودورهما من عجائب سنحاول أن نضع أيدينا على عشرٍ منها على الأقلّ، هو كلّ ما استطاعت قدراتنا البشريّة، أو قدرتي الشخصيّة على الأقلّ، أن تكتشفه فيهما:

أوّلاً: هل فكّر أحدنا مرّةً وسأل نفسه: لماذا اختُصّت الصلاة وحدها، من بين أركان الإسلام الخمسة، بهذا "الإعلان" الذي يسبق أداءها؟ أوليس الأذان نداءً صوتيّاً نعلن به عن وشك قيامنا بهذا الركن الهامّ من أركان الإسلام؟ لمَ لا نؤذّن للصوم؟ لماذا نقيم الصلاة ولا نقيم

الصوم أو الزكاة كما فعلتُ في الأذان الذي اخترعته قبل قليل؟

إنّ تقديراتنا البشريّة لا تستطيع أن تحيط بالحكمة الإلهيّة التي اختَصّت الصلاةَ وحدها بهذه المقدّمة، بل قل بالمقدّمتين: الأذان والإقامة، ولكنّنا نستطيع أن ندرك لأوّل وهلةٍ الأهمّية الدلاليّة للأذان، وهي أنّه يؤكّد للمصلّي ويذكّره، وما أكثر ما ننسىٰ، أنّ فرض الصلاة ليس عملاً فرديّاً خاصّاً يقوم به الإنسان وحده مستقلاًّ عن الآخرين، بل هو عملٌ جماعيّ عامٌّ ومشتركٌ بالدرجة الأولىٰ، وما الأذان إلاّ إسباغٌ لهذه "الجماعيّة" علىٰ الصلاة، ودعوةٌ لأفراد هذا "العمل المشترك" للاجتماع وأدائه معاً في زمنٍ واحد، ومكانٍ واحد، وخلف رجلٍ واحد، وتأكيدٌ علىٰ أنّ دور الصلاة لا يقتصر علىٰ العلاقة بين العبد وربّه، بل يتجاوزها إلىٰ اللقاء والاجتماع والتقارب والتكاتف والتفاهم والتحابب بين العبد وباقي عباد الله من أمّة محمّدٍ ﷺ. من أجل هذا لم تتطلّب السنن أو النوافل، وهي تؤدّىٰ عادةً بشكل فرديّ، أذاناً ولا إقامة، رغم أنّها صلواتٌ أيضاً.

إنّه جانبٌ حضاريّ واحدٌ للصلاة بين جوانب كثيرةٍ أخرىٰ سنفصّل فيها القول في حلقة (صلاةُ الجماعة سرُّ الحضارة).

ثانياً: للأذان والإقامة قصّة ولادةٍ عجيبةٌ في سيرة النبوّة ترتفع بهما إلىٰ درجةٍ تقترب من مرتبة الوحي، إن لم يكن هو الوحي ذاته، ولكن مع اختلافٍ في الوسيلة والأشخاص. أمّا الوسيلة ففي مجيء

نصّهما في الرؤيا وليس في اليقظة، وأمّا الأشخاص ففي حدوث الرؤيا للصحابة، وليس للرسول ﷺ.

لقد رأىٰ صحابيّان الرؤيا نفسها، في الليلة نفسها، بالكلمات نفسها، وبالتفاصيل نفسها، ولكنّ العنصر الأهمّ والأكثر إثارةً في الحدث هو أنّ أحد هذين الصحابيّين كان عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثاني الخلفاء الراشدين.

هذه الولادة الخاصّة والمتميّزة للأذان لا ينافسها، ويصبّ في فرادتها وتميّزها، إلاّ ولادة الصلاة. لقد نزل الإسلام كلّه، قرآناً وسنّةً، عن طريق الوحي، باستثناء الصلاة، فقد دعي رسول الله ﷺ دعوةً قدسيّةً إعجازيّةً خاصّةً إلىٰ السماء لتسلّمها بكلّ تفاصيلها من ربّ العالمين، وباستثناء الأذان، وقد أوصله تعالىٰ إلىٰ نبيّه الأمين من خلال هذه القناة الصحابيّة المزدوجة والمتزامنة والفريدة.

ثالثاً: الأذان في حقيقته وتركيبته ومعانيه هو بمثابة صلاةٍ تمهيديّةٍ قصيرةٍ تهيّئ المؤمن لصلاته الطويلة التالية. لقد سُنّ ترديد الأذان في أذن المولود الجديد وكأنّه صلاةٌ تمهيديّةٌ قصيرةٌ تهيّئه لصلاته الطويلة التي ستستغرق حياته كلّها. كأنّ الأذان يقول لكلّ مولود: لقد دخلت الحياة أيها الإنسان، إذن فاستعدّ لبدء صلاةٍ وعبادةٍ وصلةٍ روحيّةٍ مع الله لا تنتهي إلاّ بخروجك منها، عندها تبدأ رحلتك الأخرويّة الطويلة مع الله، والمختلفة عن رحلتك الدنيويّة القصيرة.

إنّ حياتنا، بكلّ تفاصيلها، ما هي إلاّ نوعٌ من الصلاة ولكن بطرائق مختلفةٍ ومتنوّعة. أوَلم ينصّ الكتاب الكريم علىٰ أنّ حياتنا كلّها، من الولادة إلىٰ الموت، ما هي إلاّ عبادةٌ نؤدّيها لله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾؟ [الذاريات: ٥٦]. أنت تدرس وتتعلّم؛ إذن أنت في صلاة، أنت تعمل لإعالة نفسك وعيالك؛ فأنت في صلاة، أنت تخدم الناس والمجتمع؛ فأنت في صلاة، أنت تأكل لتعيش وتقوىٰ؛ فأنت في صلاة، أنت تعتني بصحّتك؛ فأنت في صلاة.. حياتنا كلّها من ألِفها إلىٰ يائها عبادةٌ وصلاة.

أنعم النظر في كلمات الأذان، فستكتشف أنّه ما هو إلاّ صلاةٌ مختصرةٌ تمهّد لك الطريق إلىٰ الصلاة المفصّلة.

رابعاً: افترض الآن أنّك لم تسمع بالأذان قطّ، ولا بكلماته، تصوّر أنّك تسمع عبارة «الله أكبر» لأوّل مرّة، رغم أنّها أقدم من الأذان نفسه، فقد عرفها المسلمون مذ عرفوا الصلاة كما تسلّمها نبيّنا الكريم من ربّه ليلة المعراج، تَفَكَّرْ في معناها وفي صيغتها اللغويّة الفريدة، إنّها عبارةٌ غير مكتملةٍ نحويّاً؛ فهي منفتحةٌ بهذا لشتّىٰ الاحتمالات التي يمكن أن يكملها خيالك وواقعك: الله أكبر.. من الدنيا التي تشغلني عنه، الله أكبر.. من هذا المال الذي بين يديّ، الله أكبر.. من الهمّ الذي ينغّص عليّ حياتي، الله أكبر.. من العدوّ الذي يواجهني، الله أكبر من الجبابرة والطغاة الذين يضطهدونني.. إلخ.

«الله أكبر» عبارةٌ تختصر حقّاً كل الأذان، فهي محور هذا النداء العجيب الذي اختصّ به الإسلام، بل إنّها عبارةٌ تختزل الإسلام بكامله. نحن "مسلمون" لأنّنا أعلنّا "استسلامنا" وخضوعنا واعترافنا بأنّ هناك من هو "أكبر" وأعظم من كلّ شيءٍ سواه، فنحن خاضعون مستسلمون له. إنّها باختصار: "عبارة الإسلام".. (الله أكبر = الإسلام).

خامساً: جاء الأذان، بكلماته القليلة المحدّدة، في أسلوبٍ لغويٍّ فريدٍ وجديدٍ على العرب، وكذلك غير العرب من الأمم آنذاك. لقد سبق هذا الأسلوب عصره بقرون. لاحظ أنّه جاء في جملٍ متقطّعةٍ وقصيرةٍ لا يربط بينها أيٌّ من تلك الأدوات أو الروابط اللغويّة التقليديّة التي اعتدنا أن نربط بها عباراتنا، مثل (إنّ) أو (قد) أو (لقد) أو (الواو) أو (الفاء) أو غيرها. ألا يذكّرك هذا حقاً بأسلوب رسائلنا السريعة التي نتبادلها على هواتفنا النقّالة اليوم؟ لقد اختصر الأذان للعرب، بهذه الكلمات القليلة والمباشرة والواضحة، روحَ الدعوة الجديدة التي هجروا أوثانهم وعقيدتهم وجاهليّتهم من أجلها.

سادساً: ولكنّ الأعجب من ذلك أنّ هذه الصلاة القصيرة تتناغم، بطبيعة هذه اللغة البرقيّة السريعة التي جاءت بها، مع لغة أهمّ جزءٍ في صلاتنا الكبيرة: الفاتحة. أوَلم تخلُ الفاتحة أيضاً، بعباراتها البرقيّة القصيرة، من تلك الروابط اللغويّة التي اعتدناها واعتادها

العرب في لغتهم؟ في يقيني أنّه لو تُرك الأمر للغتنا الإنسانيّة العاديّة؛ لكانت لغةُ الفاتحة شيئاً من هذا القبيل:

نحن نرفع ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو أيضاً ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ وهو وحده أيضاً دون غيره ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ فها نحن يا ربّ قد جئنا لنؤكّد أنّنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ في كلّ أمور حياتنا، فنتوجّه إليك سائلين متوسّلين ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ ...﴾ [عد إلىٰ تفصيل ذلك في حديثنا عن سورة الفاتحة في الجزء الثاني من كتابنا (المعجزة) الذي يوشك علىٰ الصدور عن المعهد العالمي للفكر الإسلاميّ].

سابعاً: وبسبب هذا الموقع الذي يحتلّه الأذان في عباداتنا كانت له آدابه ومستلزماته، فكان علينا، تبعاً للسنّة النبويّة، أن نتجاوب مع كلماته، كلمةً فكلمة، بكلماتٍ مقابلةٍ تكون بمثابة صدىً لتلك الكلمات، ثمّ لا نكتفي بذلك؛ بل نشفعها في النهاية بكلماتٍ أخرىٰ نبويّةٍ نردّدها بعد المؤذّن.

هل سمعتم بالأنظمة التفاعليّة لجهاز الحاسوب، وما اشتقّ عنه اليوم من أجهزةٍ وأنظمةٍ عجيبةٍ أخرىٰ؟ إنّ علاقتنا مع الأذان، كما سنّها لنا الرسول الكريم ﷺ قبل أربعة عشر قرناً، وقبل أن يكون هناك حاسوبٌ أو نظامٌ تفاعليٌّ بين الإنسان والطبيعة من حوله، هي علاقةٌ تفاعليّةٌ تتردّد جيئةً وذهاباً بين موجات التلقّي وبين الموجات

الانعكاسيّة لما نتلقّاه. إنّ مقابل كلّ عبارةٍ تصدر عن المؤذّن عبارةً أخرىٰ يردّدها من يسمعها لتكون بمثابة الصدىٰ لتلك العبارة.

ثامناً: ومن عناصر هذا التناغم اللغويّ العجيب بين الأذان والصلاة؛ هذه البنية اللغويّة الثنائيّة التي بُني عليها حين تتكرّر كلُّ عبارةٍ فيه مرّتين. هذه الثنائيّة من شأنها أوّلاً أن تعزّز من شخصيّته اللغويّة المستقلّة، من ناحية، لكنّ من شأنها أيضاً، وهو الأعجب، أن تعزّز من تناغمه مع البناء العامّ للصلاة.

الرقم (اثنان) ليس من الأرقام المحوريّة الشائعة في العبادات والأذكار والأوراد الإسلاميّة؛ إذ تسود فيها عادةً الأرقام: ثلاثة، وسبعة، وعشرة، وسبعةٌ وعشرون، وثلاثةٌ وثلاثون، وتسعةٌ وتسعون، ومائة، ومع ذلك فإنّ عبارات الأذان تتكرّر مرّتين، فتتناغم بهذه الثنائيّة مع تركيبة صلاتنا حين نرفع في تكبيرة الإحرام كلتا اليدين، ونجلس في صلاتنا بعد كلّ ركعتين، ونسجد في كلّ ركعةٍ سجدتين، ثمّ نسلّم في نهاية صلاتنا مرّتين. إنّ هذا، مرّةً أخرىٰ، يعزّز من شعورنا ونحن نردّد الأذان أنّنا إنّما نردّد به في الواقع صلاةً قصيرةً بصوتٍ مرتفع.

تاسعاً: هل لاحظتم مرّةً كيف جاءت عبارات الأذان في لغةٍ حياديّةٍ لا تعود إلىٰ ضميرٍ محدّدٍ، متكلّمٍ أو مخاطَبٍ أو غائبٍ أو مفردٍ أو جمع؟ لم يشذّ عن هذا إلاّ الشهادتان، لما فيهما من معنىٰ المسؤوليّة الفرديّة، وأهمّية توثيق هذه المسؤوليّة علىٰ لسان من يردّدهما (أنا أشهد).

حتّىٰ اسم الفعل (حيَّ) لم يختصّ بضميرٍ مفردٍ أو جمعٍ أو مذكّرٍ أو مؤنّث. هذا الأسلوب اللغويّ المحيَّد نادرٌ في اللغة، وهو يختصّ غالباً بلغة التسبيح والأذكار والصلوات، ولكنّه، مرّةً أخرىٰ، يتناغم بهذه الحياديّة أيضاً مع أسلوب (الفاتحة)، عمود الصلاة. أوَلم يأتِ النصف الأوّل من سورة (الفاتحة) بهذا الأسلوب النادر الاستعمال؟ إنّه يتجرّد من أبعاد الزمان، ويخلو تماماً من تلك الضمائر الثلاثة التي تفرض أبعادها علىٰ لغتنا، والتي ننطلق منها عادةً في معظم ما نقول أو نكتب.

عاشراً: ربّما يرىٰ بعضنا الآن في الأذان ممارسةً لغويّةً هامشيّةً قد لا تستحقّ الاهتمام الذي تناله الصلاة منّا عادةً، فيستهينون به ويهملون أداءه قبل الصلاة، ولكنّ الرسول ﷺ، الحريص علينا، والأمين علىٰ رسالته، والذي وصفه ربّه بأنّه ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ يقول لنا غير ذلك:

- ما مِنْ ثلاثةٍ لا يؤذّنون ولا تقامُ فيهم الصلاةُ إلا استحوذَ عليهم الشيطانُ [رواه أحمد، عن أبي الدرداء].

- عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أنّ أبا سعيدٍ الخُدريّ قال له: إنّي أراك تحبُّ الغنَمَ والبادية، فإذا كنتَ في غنَمِك أو باديتك فأذّنْتَ بالصلاةِ فارفعْ صوتَك بالنداء؛ فإنّه لا يَسمعُ مدىٰ صوتِ المؤذِّنِ جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلاّ شهِدَ له يومَ القيامة [رواه البخاري].

تُرىٰ، لو كان هذا النداء مجرّد أداة تنبيه؛ فما حاجة الغنم والبادية والأشياء الجامدة إليه وإلىٰ سماعه؟ وكيف يستحوذ الشيطان علىٰ من لا يؤذَّن فيهم؟ لقد كانت تلك الإشارات النبويّة الكريمة منارةً ودلالةً للمسلمين الأوائل ترشدهم إلىٰ قيمة الأذان والإقامة ودورهما العباديّ في حياتهم، فحاول ألا تتفلّت هذه العبادة من بين أصابعك.

لو سئلتُ اليوم: كم نوعاً الصلاة؟ لأجبت: سريٌّ، وجهريٌّ، وعالي الصوت -وأعني بهذا الأخير-: الأذان. إنّ لكلٍّ من هذه الصلوات الثلاث دوره المختلف والهامّ والمتكامل في إدارة حياتنا وصلاح أمرنا.

الأذان مشروع استثماريٌّ مختزل، يمهّد للمشروع الاستثماريّ الجماعيّ والنهائيّ والأعظم: الصلاة.

* * *

الوضوءان

- لولا أنْ أشُقَّ علىٰ أمّتي لأمرتُهم عند كلِّ صلاةٍ بوضوء، ومع كلِّ وضوءٍ بِسواك [رواه أحمد وصحّحه الألباني، عن أبي هريرة].

كثيراً ما كنت أقف أمام هذا الحديث متسائلاً: ولماذا عند كلّ صلاة؟! ما دمت متوضّئاً وطاهراً، وهو أصل السنّة، فلمَ يتمنّىٰ عليّ

رسول الله ﷺ أن أعيد وضوئي من جديد؟! فلو فعلت وتوضّأت مرّةً أخرىٰ؛ أفليس في هذا إسرافٌ في استهلاك المياه؟ فكيف بك وهذه التوصية قد خرجت من قلب الصحراء وليس من بلاد البحيرات الكبرىٰ أو شلاّلات نياغارا؟!

لقد قرأت الكتب السماويّة المقدّسة الثلاثة، وقرأت ما شاء لي الله أن أقرأ من مجموعات الحديث الشريف، فلم أجد ديناً ربط عقيدته وصَلاته وعباداته وحضارته كلّها بالطهارة والاغتسال والوضوء كما فعل الإسلام، ولم أجد نبيّاً أوصىٰ أمّته بالنظافة وأَخْذ الزينة وحسن المظهر كما أوصىٰ محمّدٌ ﷺ أمّته، ومع ذلك فأين أمّة الإسلام من تعاليم الإسلام؟

إنّ هذا التأكيد علىٰ تكرار الوضوء ليس لأنّ النظافة مظهرٌ صحّيٌّ وثقافيٌّ وحضاريٌّ فحسب، وهو مقصدٌ واضحٌ ومطلوبٌ من مقاصد الشريعة، بل لأنّها، متمثّلةً هنا بالوضوء، مرتبطةٌ أيضاً بطهارة النفس الداخليّة. إنّ طهارتك الخارجيّة الكاملة من كلّ ما يدنّس جسدك أو ثيابك هي في النهاية نتيجةٌ طبيعيّةٌ ومرتسَمٌ صادقٌ لطهارتك الداخليّة لا بدّ أن ينعكس، لو وُجد، علىٰ مظهرك الخارجيّ (بعض المذاهب تُدخل الغَيبة في نواقض الوضوء).

بهذا المنطق يمكن أن نقول إنّ هناك نوعين من الوضوء: داخليّاً، وخارجيّاً، والأوّل هو الأهمّ، إذ لا نفع للثاني بغير الأوّل، وكيف لمن

كان غارقاً في حفرةٍ من القذارات أن يتوضّأ؟ لا بدّ أن تؤكّد لنفسك، وأنت تمارس عمليّة التطهير على جوارحك الخارجيّة، أنّك قد أجريت معها مثل ذلك التطهير على جوارحك الداخليّة، وهو ما لا يتمّ بالماء ولا بالتيمّم، وإنّما بالتخلّص من أقذار النفس التي تراكمت في داخلك، من غلٍّ وحسدٍ وغضبٍ وغَيبةٍ وأنانيةٍ وكذبٍ وخداعٍ وعقوقٍ وجحودٍ وأذىً وحدّة لسانٍ ودناءة نفسٍ ومعصيةٍ وسوء ظنٍّ وسوء طويّة.

أخلص نيّتك على أن تتطهّر من كلّ تلك القذارات، ولو على مراحل، حتّى تكون قادراً على إخلاص وجهك وقلبك وروحك وكلماتك لله الذي توشك عمّا قليلٍ أن تقف بين يديه لترفع إليه كلماتك فيقبلها، وتناجيه فيستمع إليك، وتستغفره فيغفر لك:

- جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: إنّ فلاناً يصلّي بالليل فإذا أصبحَ سرق، فقال: إنّه سيَنهاه ما تقول -أي ستنهاه صلاتُه عن السرقة [مشكاة المصابيح وصحّحه الألبانيّ، عن أبي هريرة].

- أتَدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلسُ فينا مَن لا درهمَ له ولا متاع. فقال: إنّ المفلسَ من أمّتي، يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاة، ويأتي قد شَتَم هذا، وقذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفَكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيُعطَى هذا مِن حسناتِه وهذا من حسناته، فإنْ فَنِيَتْ حسناتُه قبلَ أن يُقضَى ما عليه؛

أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحتْ عليه ثمّ طُرِحَ في النـار [رواه مسلم، عن أبي هريرة].

ترىٰ كم بيننا من المفلسين؟ كم منّا من انفصلت لديهم العبادةُ عن الممارسة؟ تراهم ركّعاً سجّداً، علىٰ جباههم علامة السجود، فإذا تعاملت معهم لم ترَ لتلك العلامة علىٰ جبين تعاملهم من أثر.

- ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إن ظاهرة الانفصال بين العبادة والعمل لدىٰ المسلمين غدت من أخطر ما يشوّه الصورة الصحيحة للإسلام أمام العالم. لم يكن الرسول ﷺ يفصل، وهو يعلّم الناس ما أُنزل عليه من الوحي، بين القرآن والعمل بالقرآن:

- عن أبي عبد الرحمن السلميّ عن عثمان وابن مسعودٍ وأبيّ بن كعبٍ أنّ رسولَ الله ﷺ كان يُقرئهم العَشْرَ -أي من الآيات- فلا يجاوزونها إلىٰ عشرٍ أخرىٰ حتىٰ يتعلّموا ما فيها من العمل، فتَعلّمْنا القرآنَ والعملَ جميعاً [تفسير القرطبي، ج ١، ص ٣٩].

لا بدّ أن نعيد اكتشاف عباداتنا، أن نعيد اكتشاف الصلاة، وأن نعيد اكتشاف الوضوء بين يومٍ وآخر كلّما أوشكت الألفة القاتلة أن تميت فينا الإحساس بعظمة هذه الشعيرة الإسلاميّة الفريدة التي تفتقدها الديانات الأخرىٰ.

هل جرّبت يوماً أن تتوضّأ وكأنّك قـد سـمعت بالوضـوء لتـوّك فأنت تمارسه لأوّل مرّة؟ جرّب أن تفعل ذلك ثمّ عد إلىٰ نفسك: مـاذا اكتشفتُ فيه؟ لو أمعنت في تفكيرك أكثر لاكتشفت أنّ الوضوء هـو في حقيقته، كالصلاة، نظام حياة.

إنّـه أوّلاً نظافـة: وبهـا يتميّـز المثقّفـون، وهـو ثانيـاً عنايـةٌ ودقّـةٌ ومتابعة: وبها يتميّز الناجحون، وهو ثالثاً نظامٌ وترتيبٌ ومحافظـةٌ عـلىٰ مواعيد ووفاءٌ بشروط: وبها يتميّز المتحضّرون، وهـو رابعـاً وخامـساً وعاشراً مراجعةٌ متواليةٌ وملحّةٌ للنفس، وتطهيرٌ لها ممّـا قـد يكـون قـد علق بها من أدران الحياة في الفترة الفاصـلة بـين كـلّ وضـوءين: وبهـا يتميّز المؤمنون عن غير المؤمنين، والمتّقون عن غير المتّقـين، والأوّابـون إلىٰ الله عن الـضائعين التـائهين، حتّـىٰ لتُميّـز ذلـك في وجـوه هـؤلاء ووجوه أولئك، بل تكاد تميّز وجه المتوضّئ من غير المتوضّئ.

التيمّم هو بمثابة رسـالةٍ لاسـلكيّة -هـي في هـذه الحـال: رسـالةٌ لامائيّة- إلىٰ القلب، أن استعدّ أيها القلب للقاء الله، وتخلّص من كلّ مـا يمكن أن يشوب لقاءك الموشك معه، فهو عالمٌ بأسرارك، مطّلعٌ عـلىٰ مـا تخفي وما تعلن. أمّا الوضـوء، بهـذا المعنـىٰ، فهـو رسـالةٌ مائيّـةٌ تحمـل الإشارات والإيعازات نفسها إلىٰ القلب، ولكن بطريقةٍ أخرىٰ.

لقد اشتُقّ لفظ (الوضـوء) مـن (الـضوء) لأنّـه يبعـث النـور في الوجه وفي القلب معاً، وما ضوء الوجه إلاّ انعكاسٌ للـضوء الـداخليّ للنفس والقلب.

حاول ألاّ تكون في حياتك إلاّ متوضّئاً. ستشعر وأنت تمشي إلىٰ عملك وكأنّك تطير في الهواء، وستشعر وأنت تسلّم علىٰ الناس وكأنّك تصافح الملائكة، وستشعر وأنت تمارس عملك وكأنّك تملك كلّ الثقة بنجاحك فيه، وستشعر وأنت تضع رأسك علىٰ وسادتك وكأنّك قد أدّيت الأمانة حقّ أدائها، وأنّك وضعت نفسك أخيراً بين يدي أمينٍ كريمٍ غفورٍ رحيم.



صلاة الجماعة: سرّ الحضارة

هل سألتم أنفسكم مرّةً، كما سألت نفسي: ما تعريف الحضارة؟ هل هي الآلة والمصنع والكومبيوتر والصاروخ والأساطيل البحريّة والجويّة وسفن الفضاء والقنبلة الذرّية؟ إنّ هذه جميعاً من ثمرات الحضارة، أمّا الحضارة نفسها التي أنبتت هذه الثمرات فتتلخّص في عشر بذور هي: النظافة، الدقّة والإتقان، الالتزام بالمواعيد، التنظيم والانضباط، الصدق والأمانة، العمل الجماعيّ أو عمل الفريق، التسامح والتواضع وقبول الآخر، التخصّص والمسؤوليّة الفرديّة، الصبر والهمّة والعزيمة، العدالة والمساواة.

وهل سألتم أنفسكم مرّةً، كما سألتُ نفسي: لمَ كانت صلاة الجماعة؟ لمَ كان علينا أن نخرج من بيوتنا أو مكاتبنا أو متاجرنا أو

مصانعنا خمس مرّاتٍ كلّ يوم، وفي موعدٍ محـدّد، بـل شـديد التحديـد بحيث يفوتنا لو تأخّرنا ولو لخمس دقائق؟ وهل سألتم أنفسكم مـرّةً، كما سألت نفسي: ولمَ (نأخذ زينتنا) عند كلّ مسجد؟ ولمَ الطهـارة قبـل ذلك؟ ولمَ الوضوء؟ وهل يتعلّـق الأمـر بمجـرّد الاحـترام لبيـت الله، وبمجرّد (النظافة) التي تؤهّلنـا للوقـوف بـين يـدي الله، أم أنّ الأمـر مرتبطٌ بوظائف حضاريّةٍ للطهارة والنظافـة وأخـذ الزينـة والترتيـب؛ توازي وتواكب وظائفها الشعائريّة الأخرىٰ في الاحترام والتأهيل؟

أما الالتزام بالمواعيد فصلاة الجماعة هي خير مدرسةٍ يتخرّج فيها المسلم ليكـون مـؤهّلاً للإمـساك بـشعلة الحـضارة. إن مجـرّد تـأخّرك لخمس دقائق عن صلاة الجماعة يعني أنّك خسرتها ولم يعد لديك الحقّ في المطالبة بأجرها. أليس هذا الدرس الرائع الذي يتكرّر علىٰ المـسلم خمس مرّاتٍ كلّ مرّات؛ كافياً لتخـريج مـسلمٍ يعـرف قيمـة الدقيقـة، ويدرك قيمة الخـسارة التـي تترتّـب عليـه عنـد عـدم التزامـه الـدقيق بمواعيده مع الآخرين؟

حدث أن ناقشت مرّةً، وأنا شابٌّ يافع، شيخنا الألبانيّ رحمـه الله مدافعاً عـن فكـرة جـواز تعـدّد إقامـة الجماعـات في المـسجد الواحـد للصلاة الواحدة، فلمَ لا يُسمح للمتأخّرين عن صـلاة الجماعـة الأولىٰ بأن يختاروا إماماً منهم فيقيموا جماعةً ثانية، ثـم يـأتي آخـرون فيقيمـوا جماعةً ثالثةً ثمّ رابعةً، وهكذا؟

كان الشيخ الألباني متشدّداً إلىٰ أبعد الحدود في رفض هذا التعدّد للجماعات في المسجد الواحد ذي الإمام الراتب، وللأسف؛ لم أدرك الحكمة من هذا الرفض إلاّ متأخّراً جداً. إنّ تعدّد الجماعات داخل المسجد ما هو إلاّ منعكَسٌ لتعدّد الجماعات، وتعدّد الاتّجاهات، وتعدّد الفِرَق، واختلاف القلوب وتباعدها وتفرّقها خارج المسجد. الالتزام بالجماعة الواحدة هو تدريبٌ إلهيٌّ يوميٌّ مستمرٌّ علىٰ الالتزام بالموعد الواحد، والصفّ الواحد، والقلب الواحد، والأمّة الواحدة.

وأمّا الطهارة والنظافة وأخذ الزينة، وهي التي تُعِدّنا للدخول إلىٰ المسجد وتهيّئنا للوقوف بين يدي الله، فهي نفسها التي تُعِدّنا، مثلما فعلت في الماضي، للانتقال من قذارة الجهل، وظلام الأمّية، وأدران العبث، وفوضىٰ التأخّر والإهمال واللامبالاة، لتأهيلنا للدخول إلىٰ نادي الحضارة الذي يغلق أبوابه في وجوه كلّ من لم يستوفوا الشروط الحضاريّة الأساسيّة في النظافة، وحسن المظهر، واللياقة، والترتيب، ليس في أجسادهم وألبستهم فحسب، بل في مساجدهم وبيوتهم ومكاتبهم ومدارسهم ومستشفياتهم وخدماتهم وشوارعهم ونفوسهم ومختلف مناحي حياتهم.

ها نحن الآن في المسجد. إنّ هذا الاسم الجديد لبيت العبادة الذي أوجده الإسلام وأدخله في قاموسنا اللغويّ؛ يذكّرنا باستمرار بالوضع الذي يكون فيه العبد أقرب ما يكون إلىٰ ربّه، وهو السجود. السجود يعني أن يكون رأسك وجبينك وأنفك علىٰ مستوىٰ التراب،

وهي أقصىٰ درجات التواضع والانكسار، فبقدر ما تطأطئ رأسك وتخفض جبينك وتذلّ نفسك لله علىٰ التراب؛ ستقترب منه وترتفع درجتك عنده في السماء.

بهذا التدريب اليوميّ في التواضع الذي يمارسه المؤمنون كلّ ساعةٍ أو ساعتين أو أكثر، وعلىٰ مدىٰ الليل والنهار، أمام خالقهم العظيم حين ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] -كما وصفهم تعالىٰ ووصف ملائكته- يصبح التواضع، لو أدَّوا الصلاة علىٰ وجهها من الخشوع، جزءاً راسخاً في طبيعتهم يتهادونه فيما بينهم، فلا يعود للتكبّر، ومن ثم للخلاف، مكانٌ في حياتهم، بحيث يكونون فيما بينهم كما أوصاهم تعالىٰ في كتابه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وكما أوصىٰ رسولَه الأمين ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]. عند ذلك سنكون قد خطونا خطواتنا الأولىٰ لدخول المياه الإقليميّة للحضارة.

ندخل (المسجد) فنتذكّر أننا داخلون لمدرسة السجود، مدرسة التواضع والذلّ والانكسار ولين الجانب للمؤمنين، وأنّنا داخلون أيضاً إلىٰ (الجامع) الذي "يجمعنا" ويسوّي بيننا ويوحّد قلوبنا ويزيل الكراهية والبغضاء من نفوسنا، فلا خلافات ولا أحقاد، ولا كبير ولا صغير، ولا عظيم ولا حقير، ولا أمير ولا فقير، ولا ظالم ولا مظلوم:

- أقيموا الصفوف، فإنّما تُصَفّون بصفوفِ الملائكة، وحاذُوا بين المناكب، وسُدّوا الخَلل، ولِينوا بأيدي إخوانكم، ولا تَذَرُوا

فُرُجاتٍ للشيطان، ومَن وصلَ صفّاً وصلَه الله، ومَن قطعَ صفّاً قطعَه اللهُ عزّ وجلّ [صحّحه الألباني في صحيح الجامع، عن عبد الله بن عمرو].

الله.. كم مرّةً قرأنا هذه التوصية النبويّة الكريمة، أو سمعناها في الأحاديث والعظات وخطب الجمعة، كم مرّةً ردّدها الأئمّة علينا عند إقامة الصلاة في المسجد، ولكن من منّا توقّف ليتملّى كلّ عبارة فيها، ويقرأ ما خلف كلماتها وما بين السطور، عندئذٍ سيدرك أنّ هذا الحديث النبويّ لم يكن مجرّد قاعدةٍ في تسوية الصفوف، بل هو دستورٌ في تسوية النفوس، ونظامٌ كاملٌ لإقامة مجتمعٍ حضاريٍّ متساوٍ لا يعلو فيه أحدٌ على أحد.

سنتساءل أوّلاً ونحن نقرأ الحديث بهذه الطريقة: ولماذا «**أقيموا الصفوف**» و«**حاذوا بين المناكب**»؟ لمَ هذه الأهمّية الكبيرة التي يوليها الشارع لاستقامة الصفوف ومحاذاة المناكب والأقدام؟ والإجابة ببساطة: لأنّ الحضارة تبدأ من هنا، إنّها بذرةٌ أخرى من بذور الحضارة.

إنّك، أوّلاً، مدعوٌّ لحضور هذا اللقاء الجماعيّ في الصلاة لأنّ الحضارة عملٌ جماعيٌّ لا فرديّ، إنّها الشعور بروح الفريق، والتخلّي عن الأنانية والأَثَرة. الحضارة هي جماعةٌ أوّلاً.

وإنّك، ثانياً، مدعوٌّ للالتزام بموعدك الدقيق والمحدّد هذا، ليس مرّةً واحدةً، بل خمس مرّاتٍ كلّ يوم، لتلتقي وإخوانك، فتسري روح

الدقّة والالتزام والوفاء بالمواعيد في عروقك، وتكون جزءاً من طبيعتك لا تستطيع أن تتخلّى عنه. الحضارة هي دقّةٌ والتزامٌ واحترامٌ لوقتنا ولوقت الآخرين.

وإنّك، ثالثاً، مدعوٌّ لإقامة الصفوف في هذا اللقاء مع باقي أفراد الجماعة؛ لأنّ انتظامكم وترتيبكم فيها سينعكسان بشكلٍ تلقائيّ انتظاماً في نفوسكم، وترتيباً في أذهانكم، وإتقاناً في عملكم، والتقاءً في قلوبكم، ليتكوّن من كلّ ذلك مجتمعٌ ناجحٌ ومتعاونٌ ومتكاملٌ وحضاريّ. الحضارة عملٌ جماعيٌّ وتكاملٌ وانتظامٌ وترتيبٌ وإتقانٌ وصبرٌ وتواضعٌ وتسامحٌ وقبولٌ للآخر والتقاءٌ في السبُل والأهداف والقلوب والأرواح؛ ثالثاً ورابعاً وخامساً وعاشراً.

ثمّ لا يكتفي الشارع بترك هذه القاعدة بين أيدينا ليتلاعب بها ضعفنا وتراخينا وأدواؤنا البشريّة كما تشاء، بل يربطها مباشرةً بالسماء حتّى لا يفكّر أحدنا بالتخلّي عنها أو تشويهها أو تعديلها: تذكّروا أيّها الواقفون بين يدي الله أنّ صفوفكم هذه في الصلاة على الأرض هي مرتسَمٌ لصفوف الملائكة هناك في السماء «**فإنّما تُصفّون بصفوف الملائكة**». إنّه ربطٌ عجيبٌ وحكيمٌ بين شروط الحضارة ومقوّماتها على الأرض وبين ما يجري ويرتَّب هناك في السماء. إنّ الحديث يقول لنا بكلماتٍ قليلة: العبادة الصحيحة هي الحضارة الصحيحة، وكما هي في السماء ينبغي أن تكون على الأرض.

ثمّ إنّك بعد كلّ هذا مدعوٌّ إلىٰ الالتزام بشرطٍ آخر: «**وسُدّوا الخلل.. ولا تَذَروا فُرُجاتٍ للشيطان**». إنّها المصداقيّة والمسؤوليّة الفرديّة في صناعة الحضارة. إنّ كلاًّ منّا يقف علىٰ ثغرةٍ من ثُغر أمّته، كلٌّ في مجال تخصّصه، ولكلٍّ دوره وعمله الفرديّ ومهاراته الخاصّة في إقامة بناء حضارتها. وأن يتخلّىٰ أيّ فردٍ عن مسؤوليّته في سدّ هذه الثغرة يعني ترْك فُرجةٍ للشيطان، ومن ثمّ فهي خيانةٌ وخذلانٌ وإحداث تخلخلٍ في هذا البناء قد تُؤتىٰ منه الأمّة. الحضارة تخصّصٌ ومسؤوليّةٌ فرديّةٌ وتراصٌّ وبناء.

ومرّةً أخرىٰ يربط الشارع هذه القاعدة الأرضيّة بالسماء، فاحذر يا عبد الله: إنّك إن تَصِلِ الصفوف هنا يَصِلْك الله هناك، وإن تقطعْها هنا يقطعْك الله هناك «**ومن وصل صفّاً وصله الله، ومن قطع صفّاً قطعه الله عزّ وجلّ**»، فأيّ ربطٍ أوضح من هذا الربط بين الشروط الحضاريّة هنا علىٰ الأرض وما يجري هناك في السماء. إنّه ربطٌ بين شروط العبادة وشروط الحضارة.

ثمّ إنّك، فوق كلّ هذا وذاك، مدعوٌّ إلىٰ التخلّي عن القسوة، إلىٰ تليين جانبك لإخوتك في الصلاة/ في المجتمع/ في الحياة «**ولينوا بأيدي إخوانكم**». إنّ لين مناكبنا، حين يحاول إخوتنا من المصلّين أن يساعدونا في تسوية صفوفنا، تقديماً أو تأخيراً أو سدّاً للفُرَج بين الصفوف، سوف ينعكس في النهاية علىٰ قلوبنا وطبائعنا، فلا نجنح إلىٰ القسوة مع الآخرين، ولا إلىٰ التشدّد والخشونة والتطرّف والعنف في

تفكيرنا وتصريف أمورنا وتعاملنا مع من يخالفوننا في آرائنا، أو حتّى في عقيدتنا، هكذا كان شأن رسول الله ﷺ في كلّ تفاصيل حياته كما تروي لنا أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا:

- .. ما ضربَ خادماً قطّ، ولا امرأةً، ولا ضربَ رسولُ الله ﷺ بيدِه شيئاً قطّ، إلاّ أنْ يجاهِد في سبيلِ الله، ولا خُيِّر بين أمرين إلا كان أحبَّهما إليه أيسرُهما، حتّى يكونَ إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعدَ الناسِ من الإثم، ولا انتقمَ لنفسِه من شيءٍ يؤتَى إليه - أي يوجَّه إليه- حتّى تُنتهَكَ حُرُماتُ اللهِ عزّ وجلّ، فيكونُ هو ينتقمُ للهِ عزّ وجلّ [صحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، عن عائشة].

سبحان الله، كم كان رسول الله ﷺ حريصاً على أن نتواضع فتكبّرنا، وعلى أن نلين فقسونا، وعلى أن نعتدل ونتسامح فاشتددنا وتطرّفنا، وعلى أن نتفاهم ونتقارب فتباعدنا واختلفنا، وعلى أن نجتمع ونتوحّد ونقوى فتفرّقنا وضعفنا.

لقد اختلف المسلمون، بين سنّةٍ وشيعة، على تفاصيل كثيرة، ولكنّهم لم يختلفوا، على امتداد الزمان والمكان، حول أركان الصلاة وأسسها وأعدادها وحركاتها وأوقاتها، والسبب: الصيغة الجماعيّة لأداء الصلاة.

إنّ البناء الجماعيّ لأكثر عباداتنا حفظها من التحريف. لم يختلف المسلمون على النصّ القرآنيّ لأنّ الإسلام ألزمهم بقراءته الجماعية

وتوثيقه المستمرّ ثلاث مرّاتٍ كلّ يومٍ خلال الصلوات الجهريّة، يتمّ هذا في كلّ مسجدٍ بكل بلدٍ وكلّ قريةٍ وكلّ بيت: يقرأ الإمام ويدقّق قراءتَه المصلّون من خلفه ويوثّقونها، وإنّما اختلف المسلمون على تفسير القرآن؛ لأنّ التفسير ليس ممارسةً جماعيّة. وهم لم يختلفوا على شكل الصلاة؛ لأنّها عبادةٌ جماعيّةٌ توثَّق في المساجد وبشكلٍ جماعيٍّ خمس مراتٍ كلّ يوم، ولكنّهم اختلفوا على من تتوجّه إليه القلوب أوّلاً في هذه الصلوات، فليس هناك من رقيبٍ على القلوب إلاّ الله. وهم لم يختلفوا على شكل الحجّ وأسسه؛ لأنّه عبادةٌ جماعيّةٌ أيضاً تؤدّى تحت مراقبة وتوثيق الجماعة، ولكنهم اختلفوا في التركيز على أسسٍ فيه دون أسس، وفروعٍ دون فروع.

لو نظرنا إلى أمم الأرض اليوم فحاولنا التمييز بين من تحضّر منهم ومن تأخّر، واستقْرَينا أهمّ صفات الفريقين، لوجدنا أنّ من تحضّروا قد تواضعوا وتسامحوا واجتمعوا وتماسكوا وتخصّصوا وعملوا في بناء وطنهم فريقاً واحداً، ويداً واحدةً، وقلباً واحداً، بهمّةٍ وعزيمةٍ وإرادةٍ، وأنّ من تأخّروا قد استعْلَوا وتكبّروا وتشدّدوا وتقاعسوا وأهملوا وتنابذوا وذهبوا شتّى، كلٌّ في طريق، فإذا التقت فئتان منهم فعلى قتالٍ أو نار فتنةٍ تشبّ بينهما. أليس هذا للأسف شأن المسلمين في معظم أحوالهم وبلدانهم؟

لو وضع كلٌّ منّا الحديث التالي نصب عينيه، ثمّ أنعم في كلماته النظر، فأسقطه على نفسه وعلى أهله ومن حوله، فسوف يتبيّن له أنّ

الرسول ﷺ لم يؤكّد فيه على صلاة الجماعة إلاّ وقد وضّح لنا السرّ في هذا التأكيد: الوحدة والقوّة والتماسك، وإلاّ كنّا كالشاة الشاردة عن قطيعها تسقط فريسةً للذئاب، وما أكثر الذئاب من حولنا في هذا العالم:

- ما مِن ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بدوٍ لا تُقامُ فيهم الصلاةُ إلاّ قد استحوذَ عليهم الشيطانُ، فعليكَ بالجماعةِ فإنّما يأكلُ الذئبُ القاصيةَ -أي المنفردة من الغنم عن قطيعها- [رواه أبو داود، عن أبي الدرداء].

حين تجتمع القلوب في صلاة الجماعة، وليس الأبدان وحدها، فلا بدّ أن تنعكس بعد ذلك على مجمل حياتنا وتفكيرنا، فنتصرّف جماعيّاً، ونفضّل، أو لا نفضّل، جماعيّاً، ونقبل، أو لا نقبل، جماعيّاً، ونفكّر جماعيّاً، ونعمل جماعيّاً، ونبني جماعيّاً، ونَسعد جماعيّاً، ونحزن جماعيّاً. بهذا وحده تحوّل المسلمون من جاهليّة الجاهليّة وتأخّرها وانحطاطها؛ إلى حضارةِ الإسلام وأخلاقه وفكره وعلومه ووحدةِ أرضه ووحدة أبنائه، فجمعوا بين الأرض والسماء حين اجتمعت لديهم الجماعة والجنّة:

- عليكم بالجماعة، وإيّاكم والفُرقةَ، فإنّ الشيطانَ مع الواحدِ، وهو من الاثنين أبعدُ، ومَن أرادَ بَحْبَحَةَ الجنّةِ فعليه بالجماعة [صحّحه الألباني في تخريج كتاب السنّة، عن عمر بن الخطاب].

الحضارة اجتماعٌ وتكاملٌ ووحدةٌ وإتقانٌ ودقّةٌ وتواضعٌ ولينٌ وتسامحٌ وقبولٌ للآخر وتقاربٌ وهمّةٌ وإرادةٌ وصبر.

خطبة الجمعة: الدورة التنمويّة التطويريّة

ضجّ المصلّون في أحد مساجد أكسفورد محتجّين عندما أنهىٰ إمام الجمعة خطبته بالإنكليزيّة ولم يتكلّم فيها بكلمةٍ واحدةٍ بالعربيّة: خطبة الإمام غير صحيحة، لقد ألقاها بغير العربيّة، صلاة الجمعة كلّها غير مقبولةٍ إن لم تكن الخطبة باللغة العربيّة.

نحن هنا في بريطانية كثيراً ما نقف بتعجّبٍ ودهشةٍ أمام مثل هذه الحادثة، تعجّبٌ مقرونٌ بالإعجاب والتقدير بإزاء بعض إخوتنا ممّن لا يتكلّمون العربيّة، حين نراهم يكنّون لهذه اللغة ما فقدناه نحن الناطقين بالعربيّة من محبّةٍ وقداسةٍ واحترام، وهو احترامٌ من شأنه أن يبعث فينا الخجل، وأن يعيدنا بعض الشيء إلىٰ رشدنا، وأن يحثّنا علىٰ التجرّد من تأثير الألفة السلبيّ والقاتل علىٰ احترامنا ومحبّتنا للغتنا العربيّة، وأن يعيننا علىٰ إعادة اكتشافها، واكتشاف قيمتها ومكانتها وقدسيّتها.

إنّه جانبٌ مضيءٌ حقّاً لدىٰ هؤلاء الإخوة، يشعرنا، نحن العرب، بالذنب، ويذكّرنا بالواجب المقدّس الذي نسيناه تجاه لغتنا الأمّ. ولكنّ لهذه الصورة وجهاً آخر مختلفاً.

ففي الوقت الذي نرىٰ فيه إخوتنا هؤلاء يصرّون علىٰ أن تكون خطبة الجمعة بالعربيّة دون غيرها، حتّىٰ إن لم يفهموها، تبرز أمامنا

متجسّدةً بوضوح مشكلة المفهوم القاصر والمشوّه لدىٰ بعض المسلمين للدور الأساسيّ والحيويّ الذي وُجدت من أجله خطبة الجمعة، كما يتّضح لنا الانفصام الخطير عند المسلمين بين الدين والحياة: ألقِ خطبتك بلغة قرآنك ونبيّك؛ ثمّ لا يهمّ ما تقول فيها بعد ذلك أو لا تقوله، قم بأداء صلواتك الخمس ثمّ لا بأس إن سرقت أو خدعت أو كذبت أو زنيت، لا تأكل الخنزير، كُلِ اللحم الحلال ثمّ ارتكب ما شئت من آثام. هكذا تتشوّه صورة الإسلام أمام الغرب بقدر سوء فهم المسلمين لهذا الإسلام، من ناحية، وبقدر تركيزهم علىٰ الفروع، مع تضييعهم لأعمدة الدين وأساسيّاته، من ناحيةٍ أخرىٰ. كم من الظلم لحق الإسلامَ بجهل المسلمين لإسلامهم، وكم من البلاء لحق بالإسلام علىٰ أيدي أبناء الإسلام؟

إخوتنا هؤلاء يشترطون علىٰ الإمام أن تكون خطبته بالعربيّة، وليس بلغتهم المحلّية أو أيّة لغةٍ أجنبيّةٍ يفهمونها. وقد لا تعدو هذه الخطبة عادةً بضع آياتٍ وأحاديث، وربّما أضاف إليها الخطيب، أو لم يُضف أبداً، بعض الكلمات والحكم المأثورة التي اعتاد أن يكرّرها أمامهم في كلّ خطبة، ثمّ يخرج الناس من الجمعة كما دخلوا: لا جديد، ولا فهم، ولا عظة، ولا فائدة، ولا ذكرىٰ، ولا بيان أحكام، ولا معالجة لأمور الساعة، وهكذا نكون قد قتلنا بامتياز روح خطبة الجمعة ولم يبق منها إلاّ جسدها اللغويّ.

إنّنا نجرّد هذا البيان الأسبوعيّ الهامّ من معناه، ونحوّله إلى مجرّد طقسٍ ميكانيكيّ لفظيّ، تماماً كما يجرّد كثيرٌ من المسلمين عباداتهم من معناها العمليّ عندما يفصلون بينها وبين الحياة. إنّهم يصلّون ويسرقون، ويصومون ويَكذبون، ويحجّون ويغشّون ويَظلمون ويستغيبون وينتهكون ويرتكبون ويمارسون كلّ ما اعتادوا أن يمارسوه من خطايا وذنوبٍ وتجاوزاتٍ لشرع الله، ليكرّسوا هذا الانفصام العجيب بين دينهم ودنياهم.

تجد أحدهم يحاضرك، على أمّيته، عن ضرورة مراعاتك والتزامك بشروط اللّحم الحلال، حتّى إن كان لك مفهومك المختلف، والأصحّ، عن شروط اللحم الحلال، وهو يخفي بين أضلعه، أو ربّما يظهره ولا يبالي، غشّاشاً ونصّاباً ومخادعاً وكذّاباً وسارقاً ومؤذياً وشاهداً للزور ومتحايلاً على القانون، وربّما متعاطياً للمخدّرات، ثمّ يصرّ على أنّه هو المسلم الحقيقيّ، هذا إذا لم يُخرجك عن الملّة وعن الإسلام إن لم تتبنّ شروطه، صحيحةً أو مغلوطة، لمفهوم اللحم الحلال.

ذلك ما أصبحت عليه شريحةٌ عريضةٌ من المسلمين: صلّ، ثم افعل ما شئت. قل أيّ شيءٍ في خطبتك، المهمّ أن تكون بالعربيّة. اعمل ما تريد في حياتك وفي تعاملاتك مع الناس، المهمّ ألاّ تأكل غير اللحم الحلال، وحسب المفهوم المحلّي والقاصر للّحم الحلال.

الكثيرون يجهلون الدور الأساسيّ لخطبة الجمعة في حياة المجتمع الإسلامي ونموّه وتطوّره، فتمرّ بهم صلاة الجمعة مع خطبتها على أنّها مجرّد فرضٍ طقسيٍّ لا بدّ من أدائه، وها قد قاموا بـه وأسـقطوه عـنهم: وصلوا إلى الصلاة في الموعد المحدّد، أنصتوا للخطيب، اصطفّوا وراءه بصفوفٍ مستقيمة، أدّوا صلاتهم، والسلام عليكم ورحمة الله، الـسلام عليكم ورحمة الله.

جديرٌ بنا أن نتساءل أمام مثل هذه الحالة: هل سُنَّ الإنـصاتُ إلى خطيب الجمعة، والمحافظة على الصمت والهدوء أثنـاء الخطبـة، فقـط من باب الأدب والاحترام والتوقير للإمام ولـيس أكثـر؟ هـل تكـون خطبة الجمعة بهذا مجرّد مراسم حركيّةٍ دينيّةٍ وتمارين فيزيائيّـةٍ لا أهمّيـة لمضمونها، ولا لمعنى هذا المضمون؟

الصلاة عبادة، والخطبة خطّة عمل. إنّها جزءٌ عضويٌّ غـير قابـلٍ للانفصال عن صلاة الجمعة، بحيث يجعل بعـض الحـديث مـن فاتتـه الخطبة بمنزلة من فاتته الجمعة:

- إنّ الملائكةَ يومَ الجمعةِ على أبوابِ المساجدِ، يَكْتُبونَ النَّاسَ على مَنازِلِهِم، جاءَ فلانٌ من سـاعةِ كـذا، جـاءَ فـلانٌ مـن ساعةِ كذا، جاءَ فلانٌ والإمامُ يخطبُ، جـاءَ فـلانٌ فـأدرَكَ الصَّلاةَ ولم يدرِكِ الجمعةَ، إذا لم يدرِكِ الخطبةَ [رواه أحمد، عـن أبي هريرة].

ومن هنا كان على الإمام أن يفصّل خطبته على مقاس جمهوره من المصلّين ومستوى ثقافتهم، وطبيعة ظروفهم واهتماماتهم، إذا أراد لجمهوره أن يخرج بشيءٍ ممّا يلقيه عليه. الخطبة أمام جمهورٍ من العمّال لا بدّ أن تكون غيرها أمام جمهورٍ من المثقّفين، وغيرها أمام تلاميذ المدارس، وغيرها أمام طلاّب الجامعة وأساتذتها، وغيرها أمام المعتنقين الجدد للإسلام، وهكذا.

لم يكن ﷺ يردّد الآيات في خطبه بمناسبةٍ وبغير مناسبة، كما يفعل كثيرٌ من أئمّتنا اليوم؛ حين لا تزيد خطبهم عن بضع آياتٍ أو أحاديث متكرّرة، يردّدونها أمامنا ببّغاويّاً من غير أن يحاولوا ربطها بما يجري على أرض الواقع، زماناً ومكاناً. إنّنا نأثم بحقّ الآيات حين نردّدها هي نفسها على مسامع الناس بمناسبةٍ وغير مناسبة، بحيث ينعكس هذا سلباً على نفوس المصلين، فينقلب حبّهم لهذه الآيات والأحاديث نفوراً منها وإعراضاً عنها، بل ربّما انعكس هذا على آيات القرآن كلّها.

متى تصبح لغة الخطبة أمراً لاحقاً لا سابقاً أمام مضمونها؟ ومتى يصبح اللحم الحلال أمراً تابعاً، لا مؤسّساً، لتعاليم الإسلام الأساسيّة الأخلاقية الخالدة؟ ومتى تصبح حياتنا تجسيداً وتطبيقاً وتصديقاً لعبادتنا وأداء شعائرنا الدينيّة؟

وإذا كان تعالى يبعث على رأس كلّ مائة سنةٍ من يجدّد للمسلمين دينهم، كما يؤكّد لنا نبيّنا الكريم ﷺ، فإنّ دور خطيب الجمعة هو أن

يجدّد لهم على رأس كلّ جمعةٍ أحكـام ديـنهم في التفاصـيل والمفـردات الأسبوعيّة للمشكلات والأحداث التي يواجهونها، ليـسايروا عجلـة الحياة، ويحافظوا على ارتباطهم بها، ويسهموا في صناعتها وتطويرها.

إذا كان لكلّ مؤسّسةٍ برنامجها التدريبيّ التطـويريّ، والإلزامـيّ، الذي تجريـه لعامليهـا؛ فـإنّ خطبـة الجمعـة هـي البرنـامج التـدريبيّ والتوجيهيّ والتطويريّ، الإلزاميّ، لحياة المسلم، والـرابط الأسـبوعيّ الرسميّ والعلميّ والعمليّ والتثقيفيّ والتدريبيّ والتربويّ بين مؤسّسة الإسلام ومؤسّسة الحياة.

* * *

من هنا نبدأ

تفقّدت أخاً لي كان يصلّي معنـا في المـسجد؛ فقيـل لي إنّـه لم يعـد يصلّي معنا وفضّل الصلاة في مسجدٍ آخر؛ لأنّه على خصامٍ مـع مـسلمٍ آخر يصلّي هنا. ثمّ قابلت أخاً آخر لم أره منذ زمـن، وسـألته: لمَ لم نعـد نراك في مسجدنا؟ فقال: أنا لا أصلّي في مسجدٍ يصعد فيه خطيبٌ عـلى المنبر ليقول إنّ الإنسان مخلوقٌ من نطفةٍ حقـيرة، كيـف يجـرؤ أن يحقّـر النطفة؟ ثمّ حدث أن صادفت صديقاً مـسلماً وأنـا متّجـهٌ إلى المـسجد، وتحادثنا على الطريق، فلمّا وصلنا إلى المسجد ودّعني منصرفاً، فقلت له مندهشاً: ألا تصلّي معنا؟ قال، وهو يـدير رأسـه يمنـةً ويـسرة: أنـا لا أصلّي في مسجدٍ يصلّي فيه سلفيّون.

وسألت نفسي: تصوّر لو أنّ الأمّة الإسلاميّة كانت موزّعةً بين هذه الفئات الثلاث من الناس: فثلثها لا يصلّي في مسجدٍ يصلّي فيه من يخاصمه، وثلثها لا يغتفر لخطيبٍ أو إمامٍ خطأً بشريّاً، لو افترضنا أنّه خطأ، وثلثٌ لا يريد أن يجتمع في مسجدٍ واحدٍ مع مصلٍّ آخر يخالفه في الرأي أو الاجتهاد، فهل تظنّون أنّ أمّةً كهذه أمّةٌ مؤهّلةٌ لأن تحكم العالم يوماً ما، فضلاً عن أن تحكم نفسها؟

ماذا فعلنا بأخلاق المسجد، وبأخلاق وشروط صلاة الجماعة فيه، وبدوره التاريخيّ الذي انطلقت منه جحافل الجيوش الإسلاميّة لتنشر الإسلام، وحضارة الإسلام، وأخلاق الإسلام، على وجه البسيطة كلّها، وفي زمنٍ قياسيٍّ لم تعرفه الحضارات الإنسانيّة من قبل ولا من بعد؟

في نيسان/ إبريل - ٢٠١٢ طُلب منّي المشاركة في دورةٍ أقامتها مؤسّسة (أكاديميّة الداعية المعاصر) في القاهرة بهدف "إبراز نماذج من خرّيجي وخرّيجات الأزهر الشريف المتفوّقين علميّاً وسلوكيّاً للتواصل مع أجيال الشباب وتوصيل رسالة الإسلام الوسطيّ المعتدل".

ومن خلال خبرتي لما يقرب من عقدين من السنين مفتّشاً في المجلس البريطانيّ للاعتراف بالجامعات والمعاهد العليا The British Accreditation Council (BAC)، ومع توسّع عمل هذا المجلس وامتداده مؤخّراً ليشمل الجامعات والمعاهد خارج بريطانية أيضاً، وما يعني ذلك من نقل الخبرات والمستويات الحضاريّة البريطانيّة إلى تلك الجامعات،

فقد اقترحت على المؤسّسة إقامة ما سمّيتُه (مجلس الاعتراف الإسلاميّ الدوليّ) بهدف إيجاد بؤرٍ حضاريّةٍ تخضع لشروط هذا المجلس الجديد في مختلف البلدان العربيّة والإسلاميّة، انطلاقاً من مصر، على ألاّ تقتصر هذه البؤر على الجامعات أو المؤسّسات التربويّة وحدها، بل تغطّي كلّ مؤسّسات الدولة، صغيرها وكبيرها، من شركاتٍ وهيئاتٍ ودوائر حكوميةٍ وشوارع وأحياءٍ صغيرةٍ وعماراتٍ سكنيّةٍ ومستشفياتٍ وعياداتٍ ومدارس ومعاهد وأنديةٍ ومخازن بيعٍ ومساجد وكنائس وحدائق عامّةٍ وحدائق أطفالٍ ودورات مياهٍ عامّةٍ وورشات بناءٍ وغيرها، وأن يكون الطلبة الخمسون المشاركون في دورة (أكاديميّة الداعية المعاصر)، والموزّعون على مختلف المحافظات المصريّة، نواةً لهذه الفكرة، وذلك من خلال تنظيماتٍ محلّيّةٍ صغيرةٍ مرتبطةٍ مركزيّاً بمجلس الاعتراف المذكور؛ وتطبّق شروطه وقواعده بحيث تبثّ هذه التنظيمات المحلّية روح التنافس الحضاريّ والدينيّ بين المؤسّسات في منطقتها، تنافساً يقود في النهاية إلى سعي تلك المؤسّسات لنيل اعتراف المجلس، وهكذا في سلسلةٍ من عمليّات السباق المستمرّة تشعر خلالها المؤسّساتُ التي لم تتقدّم إلى المجلس للاعتراف بها بأنّها باتت معزولةً في محيطها.

وتزداد هذه البؤر والمواقع شهراً بعد شهر، وعاماً بعد عامٍ، بسبب انتقال تأثيراتها إلى مختلف وجوه الحياة في الأراضي المصريّة. وفي عقدٍ أو عقدين من السنين؛ ستتحوّل مصر من خلال هذا البرنامج لتصبح في مصافّ الدول الأوروبيّة: إتقاناً، ونظاماً، وانضباطاً،

ونظافةً، وحسن مظهر، وارتفاعاً في مستوىٰ الإنتاج، وفي مستوىٰ السلامة العامّة بمواقع العمل، ومستوىٰ التعليم، ومستوىٰ التربية، ومستوىٰ التعامل، وهذا بطبيعة الحال سيعيدها إلىٰ قيمها الدينيّة الضائعة بحيث يثبّت كلّ منهما الآخر.

الفكرة طبعاً لم تتحرّك حتّىٰ الآن من مكانها علىٰ الورق إلىٰ حيّز الواقع بسبب الأحداث المؤسفة والمتوالية التي أعقبت ثورة ٢٥ يناير، وهذا يجعلنا نفكّر مرحليّاً بالاتّجاه الآخر: لماذا لا تبدأ مثل هذه الحركة الكبيرة من أصغر وحدةٍ حضاريّةٍ في بناء الدولة الإسلاميّة: جماعة المسجد، المسجد حيث وُجد، في كلّ شارعٍ وفي كلّ حيٍّ وفي كلّ قرية؟

بإمكان كلّ مسجد، وعلىٰ رأسه إمامُه وبضعةٌ من أركان روّاده، شباباً وشيوخاً، أن يتحوّل، بجانب وظيفته الأساسيّة، إلىٰ مجلس اعترافٍ محلّيٍّ للمؤسّسات التي في دائرته، منطلقاً في شروطه من الأسس الحضاريّة العشرة التي طرحناها في حديثنا عن (صلاة الجماعة).

إنّ ما يتطلّبه (المجلس البريطانيّ للاعتراف) من المؤسّسات التي يعترف بها، لو تجاوزنا هدفه المحصور بالجامعات، بحيث يشمل أيّة خليّةٍ عاملةٍ في الدولة، يتلخّص بهذه الشروط الأساسيّة:

- المظهر الخارجيّ والداخليّ للبناء،

- الشروط الصحّية والنظافة وشروط السلامة للعاملين

والمستفيدين من خدمات المؤسّسة،

- مدى صلاحية وجاهزيّة البناء والمكاتب والغرف لنوعيّة الخدمات التي تؤدّيها المؤسّسة،

- توفّر التأمينات اللازمة لكلا العاملين والمستفيدين،

- مدى نجاح الإدارة في تسيير المؤسّسة وتحقيق أهدافها،

- مدى أهليّة العاملين ونوعيّة الشهادات التي يحملونها والخبرات المناسبة مع توثيقها،

- المواظبة على تنظيم الدورات التدريبيّة للعاملين،

- وجود عقودٍ نظاميّةٍ لكلّ العاملين مع نظام مرتّباتٍ عادلٍ ومتساوٍ،

- وجود نظام للحوافز وتشجيع المبادرات الفرديّة للعاملين وتنمية مواهبهم،

- وجود نظام دقيق وحديث للسجلاّت وملفّات العاملين والمستفيدين،

- احتفاظ المؤسّسة بكلّ أنظمتها وسياساتها وخططها، ومهمّات كلّ عاملٍ فيها، مكتوبةً وواضحة،

- مصداقيّة الإعلانات والمنشورات الصادرة عن المؤسّسة،

- مصداقيّة الخدمات أو الخبرات أو الشهادات التي توفّرها المؤسّسة للجمهور،
- لغة التعامل مع الآخرين وحضاريّة لغة الخطاب المكتوبة والمحكيّة السائدة،
- تواصل الإدارة مع العاملين والمستفيدين واستمزاج آرائهم ومدىٰ التجاوب مع طلباتهم،
- التسهيلات التي توفّرها المؤسّسة للعاملين والمستفيدين، ولا سيّما ذوي الاحتياجات الخاصّة،
- المساواة بين هؤلاء وعدم التمييز العنصريّ/ القبليّ/ الحزبيّ/ المذهبيّ،
- إسهام محكّمين خارجيّين في تقويم أعمال المؤسّسة وخدماتها سنويّاً،
- تقييم النتائج المتحقّقة في نهاية كل فصلٍ/ عامٍ/ مرحلة.

هذه هي خلاصة الملفّات التي يحملها في حقيبته المفتّش في مجلس الاعتراف البريطاني عند زيارة أيّة مؤسّسةٍ. إنّها في أساسها لا تخرج عن الأصول العشرة التي اقترحناها للحضارة، والتي ترسّخها وتدعو إليها صلاة الجماعة، ويمكن أن تتبنّاها الحركة المنبثقة عن صلاة الجماعة لاستعادة ما فرّطنا به من أسباب الحضارة.

قد تبدأ هذه الحركة في مسجدٍ هنا ومسجدٍ هناك، كلٌّ يضع لنفسه، استناداً إلىٰ الأصول العشرة، القواعد التي يرىٰ ضرورة توفّرها في كلّ مؤسّسةٍ من أجل أن تنال اعترافه. ثمّ ما تلبث هيئات هذه المساجد القليلة أن تلتقي، في مرحلةٍ تالية، لبلورة قواعد وشروطٍ موحّدة، وإنشاء مجلسٍ موحّد، ثمّ تتطوّر هذه القواعد وتتّسع لتكوّن القانون الأساسيّ لـ (المجلس الوطنيّ للاعتراف) علىٰ مستوىٰ الدولة.

ووصول المسجد إلىٰ مثل هذه المرحلة لا بدّ أن تسبقه خطّة محكمة من الإمام، مع احتمال مشاركة أئمّةٍ من مساجد أخرىٰ في المنطقة، لتكوين "جماعة" مصلّين واعيةٍ بالوظيفة الحقيقيّة لصلاة الجماعة، ومتفهّمةٍ لدور الصلاة عامّةً في الحياة وفي إصلاح المجتمع. ويمكن أن تكون هذه الجماعة التأسيسيّة الأولىٰ نواةً لجماعةٍ أكبر تضمّ جماعاتٍ أخرىٰ من مساجد المنطقة، وهكذا حتّىٰ الوصول إلىٰ الجماعة الأكبر والأوسع (المجلس الأعلىٰ للاعتراف).

ومن مصر، أو من أيّ بلدٍ إسلاميٍّ آخر قد تبدأ فيه هذه الحركة، ينطلق المشروع إلىٰ سائر أصقاع العالم الإسلاميّ.

إنّ من شأن مثل هذا المجلس، لو أُحسن التخطيط له، أن يعيد العالم الإسلامي خلال عقودٍ قليلةٍ إلىٰ مكانته الحضاريّة الأولىٰ، وأن يبتعث من جديد روح التفكير الدينيّ الحضاريّ السليم في العالمين العربيّ والإسلاميّ؛ عن طريق إحياء الجانب العمليّ في الدين

الإسلاميّ، وربطِ العبادات بالحياة العامّة، بدءاً بالصلاة، وإعادةِ إظهار الوجه الحضاريّ الحقيقيّ للإسلام أمام العالم.

إنّه عملٌ كبير، ولكنّ أوّل الميل خطوة، وبإمكاننا، لو أخذنا الأمر بالجدّية الكافية، أن نحقّق بهذا المجلس ما عجزت أجيالٌ من الحكومات والمفكّرين عن تحقيقه حتّى الآن.

* * *

الخطوط الخمسة للصلاة

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣].

كم مرّةً قرأنا وردّدنا ظاهر هذه الآية؛ ثمّ لم نقرأ ما خلف كلماتها من دروس.

لو شاهدتم في الطريق رجلاً يتكلّم وهو يحرّك يديه ورأسه ولكن لا أحد بجانبه؛ فأوّل ما يذهب ظنّكم إليه أنّه ربّما ثبّت على رأسه توصيلات هاتفٍ نقّالٍ يتحدّث به مع أحدهم، فإذا تفحّصتم الرجل، وأنعمتم النظر، فلم تجدوا على فمه ناقلاً، ولا في أذنه سمّاعةً، ولا في يده أو جيبه نقّالاً، فلن يكون أمامكم خيارٌ إلاّ أن تقولوا إنّه مجنونٌ أو مخرّفٌ أو سكران. هل أنا مُبالغٌ فيما أقول؟

هذا هو تماماً وضعُ كثيرٍ من المصلّين، ولكن مع فارقٍ هامٍّ بين الحالتين. تنظرون إليهم فلا تجدون بجانبهم من يكلّمونه، ولا في يد

أحدهم نقّالاً يتحدّث به، وهم، على ذلك، بل الأغرب من ذلك، يتكلّمون بطريقةٍ لا توحي بأنّهم يخاطبون أحداً ما على الإطلاق، أو أنّهم، بتعبير الآية الكريمة، لا يعلمون ما يقولون.

هناك فارق مهمٌ بين أن تتحدّث فيظهر من وجهك وشكلك أنّك تعني بحديثك شيئاً ما، وأنّ هناك من تحدّثه، وبين أن تحرّك فمك ولسانك من غير أن يظهر عليك أنّك تتحدّث إلى أحد، أو أنّك تعني شيئاً ما، والحالة الأخيرة هي حالةٌ مَرَضيّةٌ عجيبةٌ وخطيرةٌ جداً.

إنّ حديث هؤلاء هو سردٌ سريعٌ لكلماتٍ ذات معنىً في الأصل ولكن لم يعد يبدو، من خلال شكلهم وملامح وجوههم وطريقة خروج الكلمات من شفاههم، أنّها تحمل الآن أيّ معنىً، إذ لم يظهر ذلك في طريقة حديثهم، وانعكاسه على وجوههم، وفي تبدّل نغمة هذا الحديث وتلوّنها مع تلوّن معانيه المتلاحقة، شأن أيّ حديثٍ نجريه، مواجهةً أو على الهاتف، مع الآخرين.

جرّب الآن، وتناول هاتفك، وأجرِ اتّصالاً مع صديقٍ لك، واطلب من زوجتك أو أحد أفراد أسرتك أن يسجّل لك كم مرّةً تغيّرت معالم وجهك ونبرة صوتك وطريقة حديثك خلال هذه المكالمة؟

إنّ ملامحنا ووتيرة كلامنا ونبرة صوتنا، وربّما حركات أيدينا ووضع أجسامنا، ستتبدّل وتتلوّن خلال مكالمةٍ عاديّةٍ عشرات المرّات تبعاً لمجريات حديثنا: بين أخذٍ، وردٍّ، وطلبٍ، وإلحاحٍ في الطلب،

وأملٍ، وخيبةٍ، واحتجاجٍ، ودهشةٍ، وقبولٍ، ورفضٍ، وعتابٍ، وحَـذَرٍ، ورجـاءٍ، وتوسّـلٍ، وثنـاءٍ، وتقـديرٍ، وسـؤالٍ، وجـوابٍ، وتعجّـبٍ، وتخوّفٍ، ورهبةٍ، وطمعٍ، وحُكمٍ، وتأكيدٍ، ونفيٍ، واسـتثناءٍ، وتوقّـفٍ، ومتابعةٍ، واستدراكٍ، وتردّدٍ..؟ إن لم نكن كذلك فنحن لسنا أكثـر مـن إنسانٍ آليّ.

هل حاولتم أن تتأكّدوا وأنتم تصلّون؛ أنّكم لستم "روبـوت" أو سكارىٰ أو مجانين، وأنّ "أحداً ما" في الصلاة يتّصل حقاً بأحدٍ ما، مثلما يتّصل أحدنا بصديقه أو أستاذه أو رئيسه، وأنّ هنـاك طرفـاً حيّـاً عـلىٰ الجانب الآخر من الخطّ، وأنّكم لا تتكلّمون مـع أنفـسكم، أو مـع "لا أحد"، فلا يتّهمكم الناس بالروبوتيّة أو الخَرف أو الجنون؟

إذا كنتم متأكّدين من ذلك حقّاً، ومؤمنين ومقتنعين بأنّ الله معكم علىٰ الجانب الآخـر مـن الخـطّ، تخاطبونـه فيـستمع إلـيكم، وتذكرونـه فيذكركم، وتسألونه فيستجيب لكم، فما الذي يثبت ذلك للناظر إلـيكم أو المستمع لحديثكم؟ بل كيف تستطيعون أن تثبتوا لله تعالىٰ نفسه، وهو السميع لنبرات صوتكم، والخبـير بنبـضات قلـوبكم، والعلـيم بـذات صدوركم، أنكم إنّما تتحدّثون إليه وليس إلىٰ "لا أحد"؟

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١-٢].

- ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤-٥].

إنّ أيّة لحظة اتّصالٍ بالله، حتّىٰ إن خَلَت من الكلمات، خيرٌ من صفحاتٍ نردّدها من غير أن يتحقّق أيّ اتّصال. إنّه تعالىٰ ينظر إلىٰ قلوبنا وليس إلىٰ ألسنتنا، فأن نكلّم الله لحظةً بقلبٍ من غير كلمات؛ أفضل وأعظم من أن نكلّمه دهراً بكلماتٍ من غير قلب، هذا لو أردنا حقاً أن نصل إلىٰ الله، وأن نعيد بالاتّصال به برمجة نفوسنا، وأن نتبصّر من نوره وفضله الطريق إلىٰ سعادتنا، وأن نمحو بحسنات صلاتنا، كما وعدَنا حقّاً، سيّئات قلوبنا وخطايا أرواحنا:

- ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

ليست الصلاة تمريناً رياضيّاً للجسد، وإن كانت لا تخلو من ذلك، وليست مجرّد وقتٍ عاديٍّ نخصّصه لقضائها ثمّ نَعبُر منه لقضاء غيرها، وإن كان الزمن وعاءً لا بدّ منه لأدائها، وهي ليست كلماتٍ تتحرّك بها الشفاه والألسن، وإن كان ذلك جزءاً من ممارستها، وإنّما تتوزّع الصلاة التي يؤدّيها العبد بين خمسة خطوطٍ متزامنةٍ ومترابطةٍ ومتكاملة، لا ينبغي لأحدها أن يستقلّ بنفسه وينفصل عن الخطوط الأخرىٰ إذا أردنا لها أن تكون اتّصالاً حقيقيّاً مع الله جلّ وعلا. هذه الخطوط لن نجدها مذكورةً بين أركان الصلاة، ولكنّها ركن هذه الأركان، فلا تكون الصلاة صلاةً من غيرها:

١- **خطّ الزمن**: لا تحاول أن تقنعني أو تقنع نفسك بأنّك فيما لا

يزيد عن خمس دقائق أو ستٍّ قد أتممت فرض الظهر أو العصر أو غيرهما من الصلوات. إنّ ما تخصّصه لصلاتك من الزمن أمرٌ أساسيٌّ في إثبات، أو عدم إثبات، حدوث الصلاة أو "الاتّصال" مع الله في هذه الصلاة. ولعلّ أهم جزءٍ من خطّ الزمن هو لحظات الصمت التي تفصل بين الآية والآية، وربّما بين الكلمة والكلمة، فلا تتزاحم الكلمات على لسانك كلٌّ منها تريد أن تسبق الأخرى. تذوّق الكلمات وقلّبها كما يقلّب أحدنا العسل في فمه ليتأكّد من جودته. أعط كلّ عبارةٍ وكلّ جملةٍ، بل كلّ كلمةٍ في صلاتك فسحةً من الصمت؛ تُقلّبها في عقلك، وتتمثّل معناها، وتتلذّذ بتذوّقها، وتتأكّد خلالها أنّك لم تشرد عنها، وأنّك استوعبت وعنيت ما فيها من معنىً. اجعل نصف صلاتك صمتاً، ونصفها مناجاةً هادئةً صادقةً لها مصدرٌ واحدٌ تصدر عنه كلماتها، وهو القلب، ولها وجهةٌ واحدةٌ تتوجّه نحوها، وهي الله.

٢- **خطّ اللسان:** فنقرأ به، ما استطعنا، الكلمات التي سنّها لنا الرسول ﷺ، ونعطي فيه لكلّ كلمةٍ ولكلّ معنىً حقّهما من النبر أو النغمة أو الارتفاع أو الانخفاض، بحيث تتحقّق المعادلة اللازمة بين هذه الأطراف جميعاً، معادلةٌ لا يتمّ الخشوع إلاّ بها، ولا يكون للصلاة حضورٌ إلاّ بحضورها وبتحقّق الانسجام التامّ بين أطرافها.

٣- **خطّ الجسد**: فتكون هيئتنا وصورتنا ومعالم وجهنا ترجمةً حقيقيّةً وصادقةً لما يلهج به لسانا من معانٍ، بحيث يعبّر الجسد والوجه والعينان عن المعنى الذي على لسانا حتّى إن لم يتحرّك به هذا اللسان. أرأيت كيف يصلّي من فقد القدرة على النطق؟ إنّه يضع كلّ قدراته التعبيريّة في عينيه ووجهه وجسده ليعوّض بها عن لسانه. تعلّم من الأخرس صلاته. لتكن صلاتك أوّلاً وقبل كلّ شيءٍ صلاة من لا يملك القدرة على الكلام، ثمّ ادعمها بعد ذلك بما منّ الله عليك من ملكة النطق والإفصاح.

٤- **خطّ القلب**: فينبض قلبنا بما يتحرّك به لساننا بحيث يصدّق أحدهما الآخر، فلا تكون النفس والهواجس في واد، واللسان في وادٍ آخر. وحبّذا لو تجسّدت نتيجة هذا التفاعل بين الخطّين قشعريرةً في الجسد، أو شحوباً في الوجه، أو تهدّجاً في الصوت، أو دموعاً تترقرق في آماق العيون.

٥- **خطّ العمل**: فتنعقد النيّة والعزم لدينا ونحن نقوم بأداء صلاتنا على أن تكون حياتنا اليوميّة تطبيقاً عمليّاً لكلٍّ من خطّي اللسان والقلب في صلاتنا، بحيث يصدّق فعلُنا قولَنا، وبحيث تكون حياتنا مرتسماً بيانيّاً لما نردّده في صلاتنا، فلا تكون هذه الصلاة مجرّد طقوسٍ شكليّةٍ منفصلةٍ عن ممارساتنا

اليوميّة وعن علاقاتنا مع الآخرين ومع الله. ومثلما جعلنا من وضوئنا وضوءين؛ لنجعل من صلاتنا صلاتين: خارجيّةً وداخليّة. ولنتذكّر أن الصلاة قد ارتبطت دائماً في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف بالعمل والتطبيق وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

- ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].
- ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩].
- مَن لم تنهَه صلاتُه عن الفحشاءِ والمُنكَرِ لم يزدَدْ بها منَ الله إلا بُعداً [رواه السفاريني الحنبلي في شرح كتاب الشهاب، عن عبد الله بن عبّاس].

صلِّ بمعالم جسدك وكأنّك لا تملك وجهاً،

وصلِّ بملامح وجهك وكأنّك لا تملك لساناً،

وصلّ بنبرات لسانك وكأنّك لا تملك جسداً،

وصلِّ بنبضات قلبك وكأنّها آخر النبضات،

وأطِل صلاتك وكأنّها آخر الصلوات.

هل سمعتم عن إنسانٍ وُجّهت إليه دعوةٌ لحضور احتفالٍ كبيرٍ في بلدٍ بعيد، فلبس له خير ما عنده من ثياب، وتجشّم إليه مشاقّ السفر الطويل، وأنفق لسفره من الوقت والمال ما أنفق، وضيّع من الفرص ما ضيّع. وهناك، عند وصوله إلى المكان المطلوب، أبرز بطاقة الدعوة

فسُمح له بالدخول، واتّخذ لـه في القاعـة الكـبرىٰ مقعـداً بـين جمهـور الحضور، وجلس بانتظار بدء الاحتفال.

وما هي إلاّ دقائق حتّىٰ غفا الرجل علىٰ مقعده ولّما تُرفع الـستارة بعد. ومرّ وقت.. واستيقظ فجأةً عـلىٰ صـوت المنظّفـين يطلبـون منـه مغادرة المكان ليتمكّنوا من القيـام بعملهـم. لقـد بـدأ العـرض، وتـمّ وانتهىٰ، وانفضّ المدعوّون، وانصرفوا إلىٰ بيوتهم، ولم يبق غير صاحبنا النائم في تلك القاعة؟!

هذا شأن من يخطّط لصلاته، وبـدعوةٍ إلهيّـةٍ عليـا، فيتوضّـأ لهـا، ويذهب إلىٰ المسجد، وينفق من وقته، وربّما من ماله، ما ينفق، من أجل الوصول إلىٰ هناك، ثمّ يقضي زمناً في المـسجد، طـال أو قـصُر، ولكنّـه يخرج من صـلاته، بعـد كـلّ ذلـك، مـن غـير أن يـستمتع بمـشاهدها الروحيّة، أو يتفاعل مع مواقفها ومعانيها السامية، أو يستـشعر صـلته فيها مع خالقه، أو ينال فيها الأجر الذي كان من المأمول أن يناله!!

حين آخىٰ الرسول ﷺ بين مسلمين، فقُتل أحدهما، ثـمّ لحـق بـه الآخر بعد أسبوع، قال المسلمون: اللهم اغفرْ له وألحقه بصاحبه. فقال ﷺ: فأين صلاتُه بعد صلاتِه... وعمَلُه بعد عمَلِه؟ إنّ بيـنهما كـما بـين السماءِ والأرضِ [رواه أبو داود وصحّحه الألباني، عن عبيد بن خالد السلمي].

الله.. إذا كانت صلاة أسبوعٍ واحدٍ ترفع المصلّي العامل مسافة مـا بين السماء والأرض؛ فما حصّة الصلاة الواحدة من هذه المسافة؟! دقّق

مرّةً أخرىٰ في الحديث الشريف، إنّه لم يكتف بالسؤال «أين صلاته بعد صلاته؟» بل أتبعه مباشرةً بالسؤال الذي لا ينبغي أن ينفصل عنه «وعملُه بعد عمله؟» ليذكّرنا ﷺ بأنّ بين الصلاة والعمل وحدةً عضويّةً، فلا ينبغي أن ينفصل أحدهما عن الآخر.

اسأل نفسك بعد كلّ صلاة: إلىٰ أيّة مسافةٍ رفعتني صلاتي؟ إلىٰ ما فوق السموات؟ فوق القمر؟ فوق الغيوم؟ فوق سقف بيتي؟ فوق رأسي بشبر؟ بإصبعين؟ بإصبعٍ واحد؟ لا شيء؟

لا تخرج من المسجد بعد كلّ صلاة إلاّ وأنت موقنٌ بأنّك غير الشخص الذي دخل إليه قبل دقائق.

* * *

المفتاح الأحمر رقم (١): الله أكبر

رغم ما في عبارة (**الله أكبر**) أساساً من خصوصيّةٍ وتفرّدٍ وطاقةٍ عجيبةٍ علىٰ الانطلاق بنا بعيداً عن الأرض - كما سوف نرىٰ - فإنّ لتكبيرة الإحرام خصوصيّةً فوق تلك الخصوصيّة. إنّها تكبيرةٌ "للإحرام"، وهذا يعني الدخول في المنطقة الزمنيّة "المحرّمة"، تماماً كدخول الحاجّ في مرحلة "الإحرام" عند بداية حجّه.

لو قال أحدهم لك: (العدوّ أضعف) ثمّ سكت، فماذا ستكون توقّعاتك؟ ستقول في نفسك: وماذا بعد؟ لماذا لم يكمل الجملة؟! أو

ستحدّث نفسك قائلاً: لعلّه سكت لأنّه تذكّر أمراً ما، أو: لعلّه تـدارك وأراد أن يغيّر الجملة لسببٍ أو لآخر، أو: لعلّ عارضاً صحّياً قـد طـرأ علىٰ نطقه ومنعه من إكمال العبارة.. هـذه التفـسيرات سـتطرح نفـسها عليك لأنّك كنت تتوقّـع في الحقيقـة أن تـأتي الجملـة، مثـل أيّـة جملـةٍ عادية، في صيغةٍ مكتملةٍ مغلقةٍ تشبه إحدىٰ هذه الصيغ:

العدوّ أضعف من أن يتغلّب علينـا، أو: العـدوّ أضـعف مـن أن يهاجمنا، أو: العدوّ أضعف ممّا كنّـا نظـنّ، أو: العـدوّ أضـعف الأعـداء الذين واجهناهم.. شيءٌ من هذا القبيل، بحيث يتلو اللفظَ «أضعف»، أينما وقع، الأداةُ «مِن» التي نُلحقها دائماً باسم التفضيل "وهو كلّ اسمٍ علىٰ وزن: أَفْعَل"، كما هـو الحـال في الجمـل الـثلاث الأولىٰ، أو يتلـوه مضافٌ إليه، كما في الجملة الأخيرة «أضعف الأعداء»، ولكـنّ العبـارة الإسلاميّة العجيبة «**الله أكبر**» خلـت مـن أيٍّ مـن الاثنـين، فـلا "مِـن" بعدها، ولا "مضاف إليه"!!.

إنّها عبارةٌ تركهـا الـشارع لنـا هكـذا "مفتوحـةً"، ولـو حـدث أن جاءت مرفقةً بالأداة المعتادة "مِـن"، أو بالمـضاف إليـه المعتـاد؛ لفقـدت امتداداتِها التخيّليّة، وانقلبت إلىٰ عبارةٍ "مغلقةٍ" لا تستحقّ منّا أيّ جهـدٍ تصوّريٍّ لتقدير ما يمكن أن نتخيّله بعدها وهي تسألنا: أكبر ممّاذا؟.

لقد جاءت صيغة «**الله أكبر**» مفتوحةً لاحـتمالاتٍ كثـيرةٍ بعـدها، وهي احتمالاتٌ غنيّةٌ تفسح المجال أمام من يقولها لأن يردّد بعـدها، في

ذهنه فحسب وليس بلسانه طبعاً، العشرات، بل المئات أو الآلاف من الاحتمالات:

الله أكبر منك يا شيطان.. منك يا ظالم.. منك يا مال.. منك يا همّ.. يا حزن.. يا فرح.. يا أيّ شيءٍ يمكن أن يصرفني عن الحديث مع الله.

إنّها ليست مجرّد (كبير) بل (أكبر). وما دام أمر فهمها وإدراك معناها الحقيقيّ قد التبس علينا نحن العرب، وتوارىٰ خلف عتمة الألفة والتكرار؛ فليس غريباً أن يلتبس أمرها علىٰ المترجمين أيضاً فيترجموها إلىٰ اللغات الأخرىٰ علىٰ أنّها (كبير) حيناً great، أو علىٰ أنّها (الأكبر) أحياناً the greatest، وليس، كما يجب أن تترجم حقاً، إلىٰ greater، وهكذا تفقد بتلك الترجمة المشوّهة صفتها الانفتاحيّة وتتحوّل إلىٰ عبارةٍ عاديّةٍ مثلها مثل أيّة عبارةٍ تقليديّةٍ مغلقة.

استمع إلىٰ معظم مؤذّنينا، وإلىٰ من يقيمون الصلاة، فسوف تجدهم يجمعون في القراءة بين كل تكبيرتين بحيث يضمّون الراء في التكبيرة الأولىٰ لتظهر التكبيرتان وكأنّها تكبيرةٌ واحدة: "الله أكبرُل..لاه أكبر". إنّهم بهذا الجمع يضيّعون شخصيّة التكبيرة الأولىٰ، فلا تظهر لمن يسمعها في صورتها الحقيقيّة: عبارةً منفتحةً تليها نقاطٌ افتراضيّةٌ تحتاج إلىٰ أن نملأها بخيالنا (الله أكبر...) هكذا بثلاث نقاطٍ بعدها.

إنّ هذا الدمج بين التكبيرتين ما هو إلاّ تجسيدٌ لحقيقة أنّنا فقدنا، وبحكم الألفة، الإحساس بالطبيعة اللغويّة المميّزة لهذه العبارة؛ فجعلناها عبارةً عاديّةً ليس فيها أيّ عنصرٍ انفتاحيٍّ يميّزها عن بقيّة العبارات، وإذن فلا ينبغي حينئذٍ أن نلوم المترجمين لو ترجموها إلىٰ (الله كبيرٌ) أو (الله هو الأكبر).

حاولوا أن تتصوّروا أنفسكم الآن بين سكّان المدينة المنوّرة حين سمعوا الأذان الأوّل، كيف كان شعورهم وهم يفاجأون بهذه العبارة، وبهذه التركيبة اللغويّة الجديدة وغير المكتملة: **الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر...** هكذا: (أكبر)، مرّةً بعد مرّةٍ بعد أخرىٰ.. ومن غير أن تروي العبارةُ الجديدة تعطّشهم لسماع التتمّة النحويّة التي كانت تتوقّعها ذاكرتهم اللغويّة التقليديّة.

(**الله أكبر**) التي بدأتَ بها صلاتك هي الزرّ الأحمر الأوّل بين مجموعة الأزرار، الحمر، وغير الحمر، تلك التي توشك علىٰ تشغيلها وأنت تمتطي سفينة الصلاة الكونيّة لترتفع بك عالياً إلىٰ السماء.

* * *

بين القراءة والتلاوة

سألني أحد الإخوة: لماذا لا نخطّط لقراءتنا في الصلاة؟ ما الذي يمكن أن تقدّمه لنا آياتٌ نقرأها في الصلاة من مثل ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لمساعدتنا على اتّصالنا بالله وخشوعنا بين يديه؟

إنّك في الوقت الذي تبدأ معه تلاوة آيات الله تعالىٰ لا بدّ أن تستحضر حقيقةَ أنّك لا تقرأ كلاماً بشرياً بل تردّد نصّاً إلهيّاً. أنت لا "تقرأها" بل "تتلوها" وهو فعلٌ خاصٌّ بقراءة القرآن الكريم وحده.

قبل القرآن الكريم لم يعرف العرب اللفظ (تلا) بهذا المعنىٰ القرآنيّ الجديد. كان اللفظ لا يعني لديهم أكثر من (تبِع)، فيقولون: دخل علينا رجلٌ وتلاه آخر. ولكنّ القرآن الكريم أخذ هذا المعنىٰ القديم ليجعله بمعنىٰ "الاتّباع" في القراءة. لقد صدرت كلمات القرآن أوّلاً عن ربّ العالمين، ثم "تلاه" -أي جاء بعده وتبعه في ترديدها- جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم تلا جبريلَ وتبعه في قراءتها رسولُ الله ﷺ، واليوم، حين يقرأ أحدنا آيات الله تعالىٰ، فإنما "نتلو" رسولَ الله ﷺ ونتبعه في قراءته التي "تلا" هو بها جبريلَ، والتي "تلا" جبريلُ بها ربَّه عزّ وجلّ.

أرأيت إلىٰ أهمّية هذه النقطة؟ إنها عمليّة "تلاوةٍ" أو "تَتالٍ" أو "تسلسلٍ" مستمرٍّ بيننا وبين الله جلّ وعلا؛ تشعرنا ونحن نتلو الآية بالارتباط المباشر، والحميم، والدافئ، بيننا وبينه تعالىٰ عبر هذه السلسلة من الحلقات القدسيّة التي يمثّل قارئُ الآية حلقةً منها. فتَبَيّنْ تماماً، واستشعر وأنت تقرأ، أيّ موقعٍ وضعت نفسك فيه من هذه السلسلة الشريفة.

ولقواعد التجويد دورٌ كبيرٌ في الحفاظ على أمانة النقل ودقّته المتناهية. إنّها تعلّمنا أن "نتلو" تماماً مَن قبلنا في هذه السلسلة الكريمة. فهي، بإدغامها ومدّها وقَصْرها وفصلها ووصلها ووقفها، تدرّبنا على الدقّة التامّة والأمانة المطلقة في تداولها؛ بحيث تكون تلاوتنا نسخةً طبق الأصل لنسخة التلاوة الأصليّة التي تلقّاها جبريل عن ربّه ثمّ ألقاها على رسول الله ﷺ تماماً كما تلقّاها عن ربّه، ثمّ ألقاها علينا رسول الله ﷺ تماماً كما تلقّاها عن جبريل.

بل إنّ قواعد التجويد تعلّمنا أن نمنح لتلاوتنا وقتاً أطول ممّا نمنحه لقراءتنا، وهذا الفارق الزمنيّ الأطول للتلاوة يعيننا أكثر على تمثّل معاني آيات الله تعالى وكلماته، فلا نمرّ بها سريعاً بدون أن نزاوج بين حركات لساننا وشفتينا وبين حركة خيالنا وتفكيرنا. جرّب واقرأ سورة (الناس) قراءةً من غير تجويد، ثم عد فاتلُها تلاوةً بالتجويد؛ لتتبيّن بنفسك كيف تستغرق تلاوتك زمناً أطول من قراءتك.

حاول ما استطعت أن "تتلو" آيات الله في صلاتك لا أن "تقرأها". إنّ "تلاوتك" لها ستشعرك بالمسؤوليّة الفرديّة تجاهها، مسؤوليّةٍ ستعبّر عنها بمزيدٍ من الخشوع والرهبة والاحترام، مع مزيدٍ من الحرص على الأمانة المطلقة في "نسخ" وترديد وضبط كلمات الله تعالى تماماً كما نقلها عنه جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

❊ ❊ ❊

اللغة الجديدة للقرآن الكريم

إنّ ممّا يعينك لترتقي بقراءتك إلىٰ درجة "تلاوة"؛ أن تدرك حقيقةً هامّةً وهي أنّك لا تقرأ لغةً عربيّةً عاديّةً تقليديّةً تشبه لغتنا البشريّة. إنّ أكثر ما هزّ المسلمين حين سمعوا القرآن الكريم من لسان نبيّهم ﷺ لأوّل مرة، ليس جمال لغته، ولا بلاغتها، ولا فصاحتها، ولا معانيها، ولا بيانها، ولا دقّتها، ولا إيقاعها، بل اجتماع كل تلك الخصائص جنباً إلىٰ جنبٍ مع أمرٍ أعجب منها وأعظم، أمرٍ لم يعرفوه في لغتهم من قبل، علىٰ طول باعهم وثقتهم بأنفسهم واعتدادهم بشعرهم وأدبهم وفصاحتهم، وهو جدّة هذه اللغة وتفرّدها واختلافها عن لغة أيّ عربيٍّ آخر عرفوه، حتّىٰ رسول الله ﷺ نفسه.

لقد عرفوا قبل نزول الوحي لغة الرجل الذي حمل هذا الكتاب إليهم، فلم تكن لغته تختلف بقليلٍ أو كثيرٍ عن لغتهم، وكانت صدمةً لغويّةً مذهلةً لهم حين أفاقوا ذات صباحٍ ليجدوا هذا الرجل وقد خرج عليهم مرّةً واحدةً بلغةٍ مختلفةٍ كلّيّاً عن لغته ولغتهم. إنّها مختلفةٌ في كلّ شيء، بأدواتها وألفاظها وتعبيراتها وسبائكها وروابطها وعلاقاتها اللغويّة وصورها وخصائصها البلاغيّة، لكنّها، مع ذلك، وهذا هو الجانب الإعجازيّ العجيب والمحيّر فيها، لغةٌ عربيّةٌ خالصةٌ

تقوم علىٰ قواعد اللغة العربيّة وتستند إلىٰ أسسها الثابتة، رغم كلّ ما أدخلته عليها من إضافات، وما أغنتها به من أعراف، وما فتحته أمامها من آفاقٍ لا حدود لها للتجديد والتطوّر.

إنّ في هذا الجمع العجيب بين القواعد الأساسيّة للّغة، والاستناد إليها والمحافظة عليها سليمةً رغم تطويرها، من جهة، وبين الخروج علىٰ الأعراف اللغويّة والنحويّة، بما فيه من تميّزٍ وجدّةٍ وتفرّد، وبهذه الكثافة غير العاديّة، من جهةٍ أخرىٰ، ما يكفي من الإعجاز لنهتزّ ونرتعش ونخشع ونحن نردّد كلماته تعالىٰ في صلاتنا، وما يكفي لأن يكون كلّ فصلٍ من كتاب الله تعالىٰ جديراً بأن يحمل هذا الاسم الجديد والمتفرّد الذي يشير إلىٰ حصانته واستحالة اختراقه؛ بما "سوّره" تعالىٰ به من أسوارٍ عصيّةٍ علىٰ التقليد أو التزييف، فجاء كأنّه قلعةٌ مسوّرةٌ حصينة: "**سورة**". ومن أجل ذلك أيضاً كانت كلّ جملةٍ أو فقرةٍ قرآنيّةٍ تضمّها هذه القلعة جديرةً بأن تحمل اسماً جديداً لم يعرفه العرب بهذا المعنىٰ من قبل: "**آية**"، إنّه اسمٌ فريدٌ ومميَّزٌ يؤكّد إعجازيّتها وامتناعها علىٰ التزييف والتقليد والاختراق إلىٰ يوم القيامة. [وارجع في تفصيل هذا الحديث إلىٰ مقدّمة الجزء الأوّل من كتابنا (المعجزة)، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٢م].

* * *

اللغة المنفتحة والمساحة الخضراء

كثيراً ما تطرق مسامعنا أو تعترضنا في حياتنا كلماتٌ وعباراتٌ اعتدنا أن نسمعها أو نردّدها فنمرّ بها مرور الكرام، مثلها مثل أيّة كلمةٍ أو عبارةٍ عاديّة، ولكنّها في حقيقتها ليست كذلك لو تأمّلنا فيها بعض التأمّل وجرّدنا ذاكرتنا من تأثير العادة أو الألفة. لنتوقّف قليلاً عند هذا الحديث الشريف:

- كان ﷺ يقولُ في ركوعِه وسجودِه: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكةِ والروح [رواه مسلم، عن عائشة].

اللفظ (سُبّوح)، مثله مثل اللفظ (سبحان)، هو لفظٌ إسلاميٌّ جديدٌ لم يعرفه العرب قبل الإسلام، وكلاهما لفظٌ منفتحٌ، أي تتبعه ما يمكن أن أسمّيه (مسافة خضراء)، فهو يترك الباب منفتحاً أمام تصوّراتنا لنملأ الفراغ بعده بما شاءت هذه التصوّرات من معاني التنزيه، شأنها في ذلك شأن عبارة (**الله أكبر**).

اللفظ (سُبحان) هو مصدرٌ غير عاديٍّ بوزنه (فُعلان)، وهو، شأنه شأن اللفظ (سُبّوحٌ)، يعني (إعلاءً) لمن نتحدّث عنه، و (تنزيهاً) له عن صفةٍ ما، فكأنّنا بقولنا (**سبحان ربّي**) قد قلنا (أنزّه ربي..)، ولكن أنزّهه عن أيّ شيء، وعن أيّة صفة؟ هذا ما لم يُذكر في أيٍّ من

تسبيحتَي الركوع أو السجود، فتُركَتا هكذا منفتحتين. لقد جاءت العبارتان كلتاهما غير مكتملتين لغويّاً، ومتبوعتين بمسافةٍ افتراضيّةٍ تتيح لنا أن نملأها بأكثر من خيار، شأنهما شأن عبارة (**الله أكبر**)، وإلا لكانتا في شكلٍ من هذه الأشكال المكتملة، أي المغلقة، على سبيل المثال: سبحان ربّي الأعلى/ العظيم.. عن النقص، سبحان ربّي الأعلى/ العظيم.. عن العيب، عن التعب، الظلم، الخطأ، الضعف، النوم، المرض.. إلخ.

ويحتشد في الصلاة عددٌ قد لا نتوقّعه من هذه العبارات غير المكتملة لغويّاً، ومن ثمّ المنفتحة للمسافات اللغويّة الخضراء والاحتمالات المتعدّدة، والأغرب من هذا أن تأتي هذه العبارات جنباً إلى جنبٍ مع عباراتٍ وكلماتٍ أخرى مكتملةٍ لغويّاً، ولكنّها منفتحةٌ مع ذلك لأسبابٍ أخرى لغويّةٍ مختلفة. ويكثر مثل هذا النوع الأخير من العبارات والكلمات في الفاتحة وفي باقي سوَر القرآن الكريم، ثمّ في التحيّات والصلوات الإبراهيميّة، كما سنتبيّن لاحقاً.

والواقع أنّنا نردّد في كلّ ركعتين نصلّيهما، وبشكلٍ ثابتٍ، ما لا يقلّ عن ٣٣ عبارةً غير مكتملةٍ لغويّاً، وهذا يعني ٣٣ مسافةً خضراء متاحةً لنا لكي يملأها خيالنا بافتراضاته، ولتمنحنا الوقت الكافي لاستيعاب معانيها واستحضارها في أذهاننا. وهذا الرقم لا يشمل الفاتحة، ولا التحيّات، ولا الصلوات الإبراهيميّة، ولا ما نقرأه من

آياتٍ أخرىٰ أو أدعيةٍ وأذكارٍ في صلاتنا. وهذا تفصيل تلك العبارات الثابتة في الركعتين:

١١ الله أكبر (أكبر من كذا) + ٢ سمِعَ الله لمن حِمده (حمِده علىٰ كذا) + ٢ ربَّنا ولك الحمد (الحمد علىٰ كذا) + ٦ (ركوعان × ٣) سبحان ربي العظيم (عن كذا، أو لكذا) + ١٢ (أربع سجدات × ٣) سبحان ربي الأعلىٰ (عن كذا، أو لكذا).

هذه الكثافة في العبارات المنفتحة أو غير المكتملة لغويّاً تشير إلىٰ أهمّية العنصر الاستحضاريّ أو التخيّليّ في الصلاة لإغناء عامل التنويع، ومن ثمّ الحفاظ علىٰ أكبر قدرٍ من الخشوع، واستيعاب ما نقول، وتحقيق الاتّصال مع السماء.

ولكن من المهمّ أن نميّز هنا بين "العبارة المنفتحة والمكتملة لغويّاً" و"العبارة المنفتحة وغير المكتملة لغويّاً". فكلّ عبارةٍ غير مكتملةٍ لغويّاً هي في الوقت نفسه عبارةٌ منفتحة، والعكس ليس صحيحاً.

إنّ عباراتٍ مثل (سبحان ربّي) أو (سمع الله لمن حمده) أو (ربّنا ولك الحمد) غير مكتملةٍ لغوياً، فهي لذلك مرشّحةٌ لمسافاتٍ أفقيّةٍ خضراء تتلوها؛ لأنّها مفتوحةٌ لعدّة خياراتٍ لغويّةٍ إضافيّةٍ تملأ الفراغات بعدها. أمّا العبارات أو الألفاظ المنفتحة التي سنجدها في الفاتحة فهي مكتملةٌ لغويّاً ونحويّاً، وهي بهذا لن تحتاج إلىٰ أيّة إضافةٍ أفقيّةٍ بعدها لإكمالها، ولكنّها مع ذلك قابلةٌ للتأويل بأكثر من وجه،

فهـي، بهـذه الاحـتمالات للتأويـل، عبـاراتٌ منفتحـةٌ أيـضاً ولكـن لإضافاتٍ عموديّةٍ لها، في العمـق، رغـم اكتمالهـا لغويـاً. إنّ اللفظـة أو العبارة المنفتحة، بهذا المفهوم، هي بمثابـة بنـاءٍ واحـدٍ ولكـن بطوابـق متعدّدة، بعضها فوق بعض، ولكلّ طابقٍ لونه وطعمه وفحواه.

* * *

دور الفاتحة والقراءة

هل توقّفت مرّةً عند حقيقة أنّ هذه السورة العظيمة ليست فاتحة القرآن فحسب؛ بل هي فاتحة الصلاة أيضاً؟ بل هي الصلاة نفسها كما سمّاها الحديث القدسي، يقول اللهُ تعالىٰ: "قسمتُ الصلاةَ -أي الفاتحة- بيني وبين عبدي نصفين، فنصفُها لي ونصفُها لعبدي، ولعبدي ما سأل. إذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، قال: حَمِدَني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال: أثنىٰ عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبينَ عبدي، ولِعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل" [رواه مسلم، عن أبي هريرة].

قال ابن كثيرٍ في تفسيره لها: "وصحّ تسميتُها بالسبع المثاني، قالوا لأنّها تثنّىٰ في الصلاة فتُقرأ في كلّ ركعة".

وهل فكّرت أنّ هذه السورة هي بمثابة عقدٍ مقدّسٍ بين فريقين: العابد، والمعبود، ينصّ علىٰ أن يضمن الفريق الأوّل للفريق الثاني: الحمدَ والشكر المستمرّين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والاعترافَ له بالربوبيّة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وبرحمته الدائمة والمستمرّة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وبالملكيّة والحاكميّة المطلقة للعالمين يوم القيامة ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وبالعبوديّة له والاستسلام والتوحيد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. علىٰ أن يضمن الفريق الثاني للفريق الأوّل مقابل ذلك: أن يعينه في كلّ أمره ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وأن يهديه في هذه الدنيا إلىٰ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي يهدي إليه من أنعم عليهم من محبّيه، وأن يجنّبه طريق أولئك ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وكذلك طريق ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ المنحرفين عن عبادته وعن توحيده؟

وهل فكّرت وأنت تقرأ الفاتحة أنّها ليست كلاماً ككلامنا، وليست لغةً عاديّةً كلغتنا العربيّة التي نتكلّمها، أو حتّىٰ تلك التي كان يتكلّمها الرسول الأعظم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في كلّ ما وصل إلينا من حديثه؟

فكيف لو قلت لك إنّ في الفاتحة، وهي تسعةٌ وعشرون لفظاً، ما لا يقلّ عن ثمانيةٍ وخمسين موقعاً لغوياً جديداً لم تعرفه لغة العرب قبل نزول القرآن الكريم، ولم تعرفه لغة الرسول ﷺ كما عرفناها في أحاديثه الشريفة، إلاّ أن يكون في الحديث اقتباسٌ واضحٌ أو تأويلٌ مقصودٌ لآيةٍ أو لجزءٍ من آيةٍ. [تجد تفصيل ذلك عند حديثنا عن الفاتحة في مطلع الجزء الثاني من كتابنا (المعجزة)، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٦م].

حاول أن تتذكّر كلّ هذا عندما تتلو الفاتحة في الصلاة. ومن أجل المزيد من استحضار معانيها وتمثّل روح كلماتها؛ حاول أن تتصوّر أنّك أنت الذي يصوغ هذه الكلمات، وأنّها نبعت من فكرك وعقلك أنت، وصيغت بعباراتك أنت، من غير أن تنسى أنّها كلام الله المعجز الذي لا يشبهه كلام، عند ذلك ستبدأ بالشعور بأنّها تفيض من داخلك، وينبض بها قلبُك، وأنّك إنّما تتلفّظ بكلماتٍ تعنيها، وتتلو عباراتٍ تؤمن بها حقّ الإيمان، وليس مجرّد كلماتٍ قالها غيرُك، ويردّدها لسانك من غير أن تهتزّ للغتها، أو تعقل ما فيها.

لو نجحت في هذا الامتحان فستكون قد أمسكت بأوّل الطريق، وستغدو قادراً على استشعار قيمة كلّ كلمةٍ في الفاتحة، وعظمة كلّ عبارة، وروعة ما تحمله هذه الكلمات والعبارات من معانٍ، وما تتميّز به من فاعليّةٍ وخصوصيّةٍ وتفرّد.

وتذكّر دائماً أنّ لهذه السورة أهمّيةً خاصّةً دون باقي سور القرآن الكريم. إنّ بإمكانك أن تقرأ في صلاتك ما شئت من الآيات والسور، ولكن لا بدّ لك من الفاتحة. لو قرأت القرآن كلّه في صلاتك ثمّ لم تقرأ بالفاتحة فإنّك لم تصلّ. ربّما كُتبتْ لك قراءةً ولكن ليس صلاةً:

- لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحةِ الكتاب [رواه البخاري، عن عبادة بن الصامت].

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّها من أجمل آيات القرآن الكريم، إن لم تكن أجملها على الإطلاق، ولكنّ التكرار والعادة والألفة حجبت عنّا رؤية هذه الخصوصيّة فيها؛ فصرنا نردّدها وكأنّها مجرّد كلمة مجاملة من نوع (شكراً) و (عفواً) و (مع السلامة). ولكن هلاّ سألنا أنفسنا: لماذا اختارها لنا ربُّ العالمين لتكون أوّل آيةٍ نردّدها في الصلاة؟ ولماذا كانت أوّل آيةٍ يُفتَتح بها القرآن؟ ولماذا كانت أوّل عبارةٍ ندخل من خلالها إلىٰ كلّ سورةٍ تقريباً؟ ولماذا كانت جزءاً من سورة الفاتحة؟

إنّ ترديدنا للبسملة في هذه المَطالع كلّها، ومن ثمّ ترديدنا لها بعد ذلك في مطالع كلّ شيءٍ في حياتنا تقريباً، جعلنا نتوهّم أنّها آيةٌ لا تعني أكثر من الابتداء أو الشروع بعمل شيء، بل انساق النحويّون وراءنا بهذا التوهّم، فلم يُتعبوا أنفسهم كثيراً في تقدير الفعل أو الحدث الحقيقيّ الذي سيعلّقون به الجارّ والمجرور (بسم)، فقالوا إنّ التقدير (أبدأ باسم الله)، وبهذا يكونون قد حلّوا مشكلتهم النحويّة، ولكن علىٰ حساب المعنىٰ الحقيقيّ والهامّ للآية.

الأمر أبعد من أن يكون مجرّد افتتاح عملٍ أو نصٍ قدسيٍّ باسم الله، ولا شكّ أنّ وجود البسملة في مطلع السوَر حين نقرأها، أو في بداية الأعمال حين نمارسها، بحكم معناها الأصليّ الذي سنبيّنه الآن،

والذي يتطلّب منها أن تكون في هذا الموقع، هو الذي جرّنا، وجرّ النحويّين معنا إلىٰ هذا التوهّم.

الآية تتّجه، وهو أهمّ ما تتّجه إليه أساساً، إلىٰ أنّ أيّ بلاغٍ قرآنيٍّ سنتلوه بعدها، وأيّ أمرٍ، وأيّ نهيٍ، وأيّ وعدٍ، وأيّ وعيدٍ، وأيّ وصفٍ، وأيّ خبرٍ، وأيّ موعظةٍ، وأيّ تذكير؛ إنّما سيجري علىٰ لساننا بالنيابة عن الله، جلّ وعلا، وبسلطةٍ ومرجعيّةٍ منه.

إذا كان الإنسان خليفة الله علىٰ هذه الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فلا بدّ، وهو يتصدّىٰ لعملٍ كبيرٍ كهذا: تلاوة كلماتِ مَن أوكله بهذه الأرض، كلماتِه نفسها، في الصورة الأصليّة نفسها التي صدرت بها عنه تعالىٰ، لا بدّ أن يذكّر نفسه، ويذكِّر من يسمعه أيضاً، بأنّه حين يردّد، وهو تحت، في عالم الأرض؛ تلك الكلمات التي صدرت من فوق، من عالَم السماء؛ فإنّما يردّدها بالنيابة عنه تعالىٰ، وبمرجعيّةٍ منه، وبوصفه خليفةً له عزّ وجلّ علىٰ هذه الأرض.

عندما يُصدر قاضٍ حكمه في قضيّةٍ بين يديه، ويبدأ قراءةَ الحكم بقوله: (باسمِ الشعب) فلا شكّ أنّه يريد أن يقول، وهو يردّد كلمة (باسمِ)، إنّ هذا الحكم الصادر منه إنّما يصدر (بالنيابة عن) الشعب، أو (بوصفه مندوباً لهذه المهمّة من الشعب) فهو يمثّل هذا الشعب، ويستمدّ سلطته منه، وتصدر قراراته عن قوانينه. وأنت حين تتوسّل

إلىٰ أحد أقربائك ليحقّق لك مطلباً فتقول له: (أناشدك باسم القُربىٰ)، فأنت تعني: (بسلطة ومرجعيّة ومسؤوليّة القربىٰ).

أن تبتدئ الفاتحةُ أو السورة بالآية ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ تذكيرٌ للقارئ بأنّه فيما سيتلو من هذه التعاليم السماويّة إنّما سيتلوها (بسلطة الله ومرجعيّته)، ولو اكتفينا، لتعليق حرف الجرّ (الباء) هنا، بالحلّ الذي اقترحه النحويّون (أبدأُ بسم..) لأرحنا أنفسنا معهم من عناء البحث والاكتشاف، ولكنّنا سنكون قد ضيّقنا واسعاً، وفقدنا المعنىٰ الأساسيّ والهامّ والرائع للكلمة.

عندما أبدأ صلاتي بالبسملة، فهذا يعني جرسَ إنذارٍ لي يذكّرني بأنّ ما أوشك علىٰ القيام به لن يكون مجرّد حركاتٍ تلقائيّةٍ ستصدر عنّي، وكلماتٍ محفوظةٍ مكرّرةٍ تتدافع علىٰ لساني ولا ينبض بها قلبي، بل هو اتّصالٌ حقيقيٌّ مع الله؛ أؤكّد له فيه أنّ ما سأقوم به الآن هو تنفيذٌ للعهد بيني وبينه، وأنّني ما زلت أميناً علىٰ منصب خلافته علىٰ هذه الأرض.

وأنا حين أوشّي الصفحة الأولىٰ من كتابي هذا بعبارة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإنّما هي تذكيرٌ لي من ربّ العالمين، وتأكيدٌ منّي له، أنّ كلّ ما في الكتاب، من أوّل كلمةٍ فيه إلىٰ آخر كلمة، سيكون وفقاً للعقد المبرم بيني وبينه تعالىٰ، في ابتغائي لوجهه، وفي التزامي بقواعده، وفي وقوفي عند حدوده، وفي التقيّد بشروط السلطة الممنوحة لي علىٰ أرضه.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ هي وثيقةٌ بينك وبين الله، بأنّك لست أكثر من وكيلٍ له في هذه الأرض، فلا مُلكَ إلاّ مُلكه، ولا سلطةَ إلاّ سلطتُه، ولا مالَ إلاّ مالُه، ولا عقارَ إلاّ عقارُه، ولا طعامَ إلاّ طعامُه، ولا شرابَ إلاّ شرابُه، وما أُنزِلتَ أيّها الإنسان من السماء إلىٰ هذه الإقطاعيّة الصغيرة التي اسمها (الأرض) من بين بلايين البلايين من الإقطاعيّات الصغيرة والكبيرة التي نثَرها عزّ وجلّ في هذا الكون اللامتناهي، إلاّ لتدير ما أُسند إليك من شؤون هذه الإقطاعيّة بالنيابة عن مالكها الأصليّ، وتنفّذ بنودها كما أُنزِلت، ووفق عقدٍ قصير الأمد بينك وبينه توشك أن تنتهي مدّته، فهل تهيّأت للرحيل، وهل أعددت نفسك للمثول أمام المالك وبيدك دفتر الحسابات؟

ولكنّ حكاية ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لا تنتهي هنا. لقد كان يمكن لهذا (الإذن) أو (التوكيل) أو (عقد التمثيل) أن يتوقّف عند ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ وينتهي الأمر، ولكنّه تعالىٰ يربط هذا (العقد) بـ (ملحَقٍ) لا ينفصل عنه، ويعدّ جزءاً لا يتجزّأ منه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

إنّ اجتماع لفظَي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ المشتقَّين من مصدرٍ واحدٍ، والإصرار علىٰ اجتماع هاتين الصفتين من صفات الله تعالىٰ في البسملة التي هي بمثابة (عقد التمثيل) بينك وبينه، وفي موقعها الافتتاحيّ غير العادي لأهمّ وسيلتَي اتّصال بين المسلم وربّه: الصلاة والقرآن، يحمل لنا في طيّاته، بل لك أيّها المصلّي خاصّةً، وللعالم كلّه من حولك، أكثر من رسالة:

أولاً: لأنّه تعالىٰ هو الذي (سبقت رحمتُه غضبَه)، كما في الحديث القدسيّ، فقد اختار لك أن تبدأ، وبإلحاحٍ عجيبٍ أكّدته بدايات ١١٣ سورة، بهذا الثنائيّ الرحيم البديع من أسمائه، رغم تقارب الاسمين واشتقاقهما من مصدرٍ واحد (علىٰ اختلافٍ واضحٍ في معنييهما). لاحظ أنّه لم يلجأ إلىٰ "تلوين" افتتاحيّات السوَر بين الحين والآخر بثنائيّاتٍ أخرىٰ بديلةٍ من صفاته الكثيرة، بل لم يختر لك، حين اختار هذه الافتتاحيّة، ثنائيّاً آخر يمكن أن تجتمع فيه القوّة والرحمة معاً، تحقيقاً للتوازن بين العنصرين لو عدنا إلىٰ مفهومنا البشريّ، رغم اجتماعهما في أكثر من مكانٍ في كتابه العزيز، كهذا الثنائيّ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٢]، أو الثنائيّ الآخر ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [المُلك: ٢] مثلاً.

ثانياً: ولأنّ لصفتَي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ هذه الأهمّية الكبيرة، ولأنّهما جزءٌ أساسيٌّ من صلاتك، وفاتحةٌ لكلّ تلاواتك، فهذا يعني أنّهما جزءٌ، بل ركنٌ من عقيدتك، فيما لو كنت جديراً حقاً بالمنصب الموسَد إليك: خليفةً لله في أرضه.

ثالثاً: ولأنّك مستخلَفٌ في الأرض بإذنٍ منه تعالىٰ، وهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، فهذا يُلزمك، بموجب هاتين الصفتين المختارتين والمفضّلتين عنده تعالىٰ، أن تكون خيرَ خليفة، وأن ترتفع دائماً، وبما يتناسب مع الإلحاح القرآنيّ والتكرار والملاحقة والتأكيد علىٰ هاتين الصفتين، إلىٰ مستوىٰ مسؤوليّة (الرحمة) التي أُوكلت إليك.

أنت مسلم، إذن لا بدّ أن يرىٰ العالم في سماحة وجهك، وفي ابتسامة شفتيك، وفي رقّة قلبك، وفي حدبك علىٰ القريب والبعيد، وفي محبّتك للجميع، وفي تسامحك مع صديقك وعدوّك علىٰ السواء، كلَّ ما في معنىٰ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ من احتواءٍ للآخر، ومن عفوٍ ومحبّةٍ وإنسانيّة ولين جانبٍ وخفض جناح.

تُرىٰ، هل صورة المسلم التي يراه العالم بها اليوم؛ هي حقاً هذه الصورة؟



الرحمن الرحيم

هما لفظان علىٰ صيغتين لغويّتين مختلفتين: (فَعْلان) و (فَعِيل) ولكنّهما مشتقّان من المصدر نفسه: الرحمة. والواقع اللغويّ لصيغة اللفظين يقول إنّ لكلٍّ منهما شخصيّته المعنويّة المختلفة تماماً عن الآخر. فلفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ علىٰ صيغة (فَعْلان) وهي صيغةٌ آنيّةٌ تشير في لغتنا عادةً إلىٰ ما يجري "الآن"، كما في الألفاظ (ظمآن) و(غضبان) و(سهران) و(فرحان). فهذه الألفاظ جميعاً تدلّ علىٰ صفةٍ تأخذ مجراها الآن، فالظمآن هو هكذا الآن وسينتهي قريباً ظمؤه، والغضبان هو هكذا الآن وسيهدأ عمّا قليلٍ غضبه، وهكذا..

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إذن هو من تتنزّل رحمته من السماء عليك "الآن"..

أي في اللحظة التي تقرأ فيها الكلمة. إنّ لها معنىً رأسيّاً شاقوليّاً آنيّاً يمتدّ من السماء إلىٰ الأرض؛ ونشعر معه بالرحمة ما تزال تتحرّك باتجاهنا وتتنزّل علينا طازجةً منعشةً من عند الله، فاحرص إذن علىٰ أن تقرأها وأنت تستشعر هبوطها عليك كالشلاّل فتغسلك بفيض رحمته تعالىٰ من قمّة رأسك إلىٰ أخمص قدميك.

أمّا ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهي علىٰ وزن (فَعِيل) وهي صيغةٌ تشير في لغتنا عادةً إلىٰ الاستمراريّة والامتداد والدوام. فالكريم كريمٌ دائماً، والبخيل بخيلٌ دائماً، والوضيع وضيعٌ باستمرار. إنّه إذن ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أبداً وفي كلّ وقت، فرحمته هنا عامّةٌ ممتدّةٌ في الزمان، السابق والحاضر واللاحق. إنّها صفةٌ ذات بعدٍ أفقيٍّ متطاولٍ يمتدّ من الأزل إلىٰ الأبد، وهي تتكامل بهذا مع صفة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ذات البعد العموديّ الذي يمتدّ من السماء إلىٰ الأرض، وذات المعنىٰ الحيويّ المتحرّك الذي نستشعره طازجاً لحظةَ قراءتنا لهذه الكلمة. [لمزيدٍ من التفصيل انظر حديثنا عن (سورة الفاتحة) في الجزء الثاني من كتاب «**المعجزة**»، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٦م، ص ٥٣ وما بعدها].

وإنّ ممّا يطمئننا إلىٰ صحّة هذا الفصل بين أبعاد اللفظين والتمييز بينهما؛ الطريقة التي كان الرسول ﷺ يقرأهما بها، تِبعاً لما مرّ بنا في الحديث النبويّ:

"سُئل أنسٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كيف كانت قراءةُ رسولِ الله ﷺ؟ فقال:

كانت مدّاً، ثم قرأ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يَمـدُّ ببسمِ الله، ويَمـدُّ بالرحمن، ويَمدّ بالرحيم" [رواه البخاري، عن قتادة].

إنّ مدّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، رغم أنّه لا تتوفّر فيهما شروط المدّ التي تنصّ عليها قواعد التجويد، يمنح كلاً منهما شخصيّةً ذات استقلاليّةٍ وتميّز، لأنّ المدّ، كما عرفنا، يعني زمناً، والزمن يعني انفصال الوصف عمّا بعده، والانفصال يعني استقلاليّةً وتفرّداً بالمعنى والاتّجاه.

* * *

المفتاح الأحمر (٢): إيّاك نعبدُ وإيّاك نستعين

تخيّلوا معي صورة رجلٍ مظلومٍ ذهب إلى دائرةٍ حكوميّةٍ يحاول أن يستردّ حقّاً استُلب منه. إنّه سيدخل على الموظّف مطالباً بحقّه، وسيطلب منه هذا أن يكتب طلباً ويضع عليه طابعاً ماليّاً ثمّ يضعه في بريد الدائرة حتّى يأخذ مجراه الروتينيّ المعتاد قبل وصوله إلى المدير الأعلى لدراسته والخروج بقرارٍ في شأنه، صحّ هذا القرار أو أخطأ، وعدَل أو ظلَم.

قارن بين حال هذا الرجل؛ وحال رجلٍ آخر محظوظ، فهو على صلةٍ وصداقةٍ شديدةٍ بمدير الدائرة المذكورة، وهذا المدير هو المسؤول الأوّل والأخير الذي يقرّر في النهاية مصير طلبه ويبتّ في أمره، قبولاً أو رفضاً، وهو عادلٌ لا يَظلم قط، وحكيمٌ لا يخطئه الصواب قط..

إنّ الأمر مع ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ شيءُ من هذا القبيل، ومع ذلك فلا وجه أبداً للمقارنة، فلله المثَل الأعلىٰ، والله دائماً أعلىٰ وأجلّ.

لن يكون هناك موظّفون صغارٌ تقدّم لهم طلباً رسميّاً، إنّه، بدلاً من ذلك، سيسمح لك، بل هو يطلب منك، بل إنّه يأمرك بأن تخاطبه بنفسك، وأن تطلب منه حاجتك، والأعظم من هذا أنّه يلقّنك بنفسه الصيغة التي يريدك أن تسأله بها ما تريد، فيضع علىٰ لسانك كلّ تلك الصفات التي أضفاها علىٰ نفسه في مقدّمة الفاتحة، ثمّ يتيح لك في نهايتها أن تؤكّد له أنّك عبده، وأنّه ربّك وإلهك المسؤول عنك وعن رعاية مصالحك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾..

قال رسولُ الله ﷺ: "يقول اللهُ تعالىٰ: قسمتُ الصلاةَ -أي الفاتحة- بيني وبين عبدي نصفين، فنصفُها لي ونصفُها لعبدي، ولعبدي ما سأل. إذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال: حَمِدَني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال: أثنىٰ عليّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبينَ عبدي، ولِعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل" [رواه مسلم، عن أبي هريرة].

نحن الآن إذن مع الآية التي تتوسّط السورة، بل إنّ منتصف الآية هو منتصف السورة، حيث ينتهي موقفٌ تأكيديٌّ تسبيحيٌّ

تعظيميّ ترفعه إلىٰ الله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ويبدأ حالاً، وفي الآية نفسها، موقفٌ دعائيٌّ توسّليٌّ مختلف؛ تطلب فيه من الله ما تريد: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

إنّنا نشعر حقّاً، مع هذه الاستقلاليّة العجيبة للمحطّتين المختلفتين اللتين تجمعهما آيةٌ واحدة، وكأنّ علينا أن نتوقّف في تلاوتنا عند النصف الأول من الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، لنتابع بعدها إلىٰ النصف الثاني منها ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. بل تُروىٰ عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قراءةٌ للّفظ ﴿نَعْبُدُ﴾ تقضي "بإشباع الدال حتّىٰ تتولّد منه واوٌ" [شاهين، عبد الصبور. **تاريخ القرآن**، القاهرة: دار القلم، ١٩٦١م، ص ١٧٥]، وهذا يساعد علىٰ إظهار استقلاليّة وإثبات شخصيّة ما جاء قبل المدّ عمّا جاء بعده.

فهل شعرت وأنت تردّد هاتين العبارتين في صلاتك، رغم مجيئهما في آيةٍ واحدة، بأنّك أمام موقفين مختلفين، وأن اللهجة التي ستنطق بها الجزء الأوّل من الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا بدّ أن تغاير اللهجة التي ستنطق بها الجزء الثاني ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؟ تذكّر أنّك تنتقل الآن من الجزء الخاصّ بالفريق الأوّل من هذا العقد إلىٰ الجزء الخاصّ بالفريق الثاني.

ستلفظ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وفي صوتك نبرات التوقير والتعظيم والاستكانة والتهيّب لمن كانت ناصيتك وحياتك ومصيرك بيده، ولكنّك ستلفظ ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفي صوتك نبرة الضعف والرجاء

والابتهال والتوسّل والأمل وأنت تستشعر شآبيب الاستجابة والرحمة والإغاثة والعون توشك أن تنصبّ عليك من لدن هذا (المعين) القويّ، كيف لا، وأمامك الآن، تخاطبه ويسمع لك، ذلك الذي إن كان ضدّك فمن سيكون معك، وإن كان معك فمن سيكون ضدّك، كما قال السلف؟!

إنّها الآية التي قسمها الله بينه وبين عبده، وقد وعد بها تعالىٰ عبده المصلّي بأجمل وعدٍ، صادرٍ عن أصدق واعد: «ولعبدي ما سأل».

اقرأ بـ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وأنت واثقٌ بالإجابة، ثقة ذلك المصلّي الذي ذهب في يومٍ قائظٍ ليؤدّي مع الناس صلاة الاستسقاء، ولكنه، دون سواه، حمل مظلّته تحت إبطه.



اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين..

الآن، وقد فُتحت لك أبواب الثناء فأثنَيْت، وبوّاباتُ الرحمة فاستنزَلْت، وفرصُ السؤال فسألْت، يضع ربّ العالمين علىٰ لسانك أعظم طلبٍ يمكن أن يطلبه إنسان في هذه الحياة: الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، وهل هناك أمرٌ نخاف علىٰ أنفسنا منه أعظم من الانحراف عن هذا الصراط؟

تصوّروا لو أنّنا أغنياء أعظم ما يكون الغنىٰ، وأذكياء أشدّ ما يكون الذكاء، وأصحّاء أكمل ما تكون الصحّة، وسعداء أتمّ ما تكون

السعادة، ثمّ لم نُرزق نعمة التوحيد والهداية، فما نفع كلّ هذا وذاك؟ سعادة الدنيا؟ وما سعادة الدنيا إذا حُرمنا من الآخرة؟ ما مائة سنةٍ أو ألف سنةٍ أو مائة ألفٍ أو مليون سنةٍ من حياة الدنيا إلىٰ جنب لحظةٍ واحدةٍ من حياة الخلود، جنّتها أو نارها؟

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ...﴾ [النور: ٣٩].

- يؤتَىٰ يومَ القيامة بأنعَمِ أهلِ الدنيا من الكفّارِ فيقال: اغمِسوه في النارِ غمسةً، فيُغمَسُ فيها، ثمّ يقالُ له: أيْ فلان، هل أصابكَ نعيمٌ قطّ؟ فيقولُ: لا ما أصابني نعيمٌ قطّ، ويؤتَىٰ بأشدِّ المؤمنين ضُرّاً وبلاءً فيقال: اغمِسوه غمسةً في الجنّة، فيُغمَسُ فيها غمسةً، فيقال له: أيْ فلان، هل أصابكَ ضُرٌّ قطُّ أو بلاءٌ؟ فيقولُ: ما أصابَني قطُّ ضُرٌّ ولا بلاءٌ [رواه ابن ماجه وصحّحه الألباني، عن أنس بن مالك].

إنّ المتعة التي نستشعرها بقراءتنا ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ غير تلك التي نستشعرها بقراءتنا بعدها مباشرةً ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾. العبارة الأولىٰ سؤالٌ للدنيا، والثانية سؤالٌ للآخرة، ولكن من غير أن يمنع هذا إمكان المعنىٰ الدنيويّ أيضاً. فالصراط المستقيم عبارةٌ منفتحة، إنّها يمكن أن تعني أيضاً، إلىٰ جانب الهداية والتوحيد، الحكمةَ والرشاد والرأي السديد في كلّ الأمور، وهل من نعمةٍ دنيويّةٍ أكبر من أن يُرزق

المرء في حياته برأيٍ سديدٍ مستقيمٍ يستعين به في أمور حياته، ويعين به الآخرين من حوله أيضاً؟

هذه الصفة "الانفتاحيّة" للفظ (الصراط) في (الفاتحة) لا تقتصر عليه وحده، بل تمتدّ إلىٰ نهاية السورة. فمن هم ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ومن هم ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ ومن هم «الضالّون»؟ هل هم، علىٰ التوالي، المسلمون، ثمّ اليهود، ثمّ النصارىٰ، كما يذهب كثيرٌ من المفسّرين، وكما جاء في بعض الحديث الشريف:

- .. ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ اليهودُ، و ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ النصارىٰ

[صحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة، عن عديّ بن حاتم الطائي وعن أبي ذر الغفاري].

إنّ العبارات الثلاث مكتملةٌ لغويّاً، ولا تحتمل أيّة مسافاتٍ لغويّةٍ افتراضيّةٍ بعدها، ولكن لو قارنّاها بعباراتٍ بشريّةٍ أخرىٰ مقابلةٍ لها؛ لأدركنا حقيقة الصفة الانفتاحيّة للعبارات القرآنيّة الثلاث.

اقرأ معي الآية من جديدٍ مع استبدال التعبيرات القرآنيّة المنفتحة بتعبيراتٍ بديلةٍ "مغلقة" لتدرك الفرق بوضوحٍ بين الأسلوبين:

اهدِنا الصراطَ المستقيم، صراطَ المسلمين غيرِ اليهود ولا النصارىٰ.

هل تَبيّن لك الآن مدىٰ "غنىٰ" التعبير القرآني المنفتح وهو "يفتح" معنىٰ ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ علىٰ كل منعَمٍ عليهم، ويفتح معنىٰ

﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ على كل من غضب الله عليهم، ومعنى ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عل كل من ضلّ عن الطريق الصحيح، من غير أن يلغي التفسيرَ النبويّ، ولكن من غير أن "يغلق" أيضاً العبارات الثلاث فيحصرَ كلاًّ منها بفئةٍ محدّدة؛ كما فعلنا في عباراتنا البشرية؟

إنّ من المهمّ جدّاً، عندما نقرأ الآية ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، أن نتذكّر أنّها، ولحكمةٍ ربّانيّة، جاءت منفتحةً لنا، بين العديد من الألفاظ والعبارات المنفتحة الأخرى في صلاتنا، بحيث نستطيع أن نفتحها ما شئنا فتشمل كلّ مخلوقٍ على وجه الأرض، أو نضيّقها ما شئنا فلا تكاد تتعدّى قارئها (أنا). إنّها لم تأت مفردة، بل جاءت هكذا في صيغة الجمع (اهدنا). حاولوا ما استطعتم، وقد أدركتم هذه الحقيقة، أن تشملوا بدعوتكم كل من يحيطون بكم من الأبناء والأهل والأقارب والجيران والمعارف، بل لتشملْ دعوتُكم العالمَ كلّه، بما فيه من أصدقاء وأعداءٍ على السواء، مسلمين وغير مسلمين، وهل أروع وأغلى وأعظم من أن تطلب من الله أن يمنّ على أصدقائك وأعدائك والبشر جميعاً على السواء؛ بالهداية إلى الحقّ والعدل والصراط المستقيم؟

تذكّر أنّ كسرك لحواجز الضمير (نا) هنا بحيث يتّسع ليشمل الجميع، الجميع بلا استثناء، هو كسرٌ لحواجز الكراهية والحقد بينك وبين الآخر، أيّ آخر، وإعلانٌ وتصميمٌ وتدريبٌ متواصلٌ منك على أن ترتفع في قلبك باستمرار رايةُ الحبّ والتسامح بإزاء أولئك الذين يرفعون باستمرار راية الكراهية، ويعلّمون أبناءهم مع الرضاعة أنّ

عليهم أن يكرهوا ويحقدوا إذا أرادوا أن يكونوا مسلمين. تذكّر هذه القاعدة الذهبيّة: أنت مسلم؛ إذن أنت محبٌّ وأنت متسامح:

- ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

- ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

- ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].



محطّات المدّ في الفاتحة

إذا كان المدّ يعادل توقّفاً بسيطاً، فمن الطبيعيّ أنّه يمنح الكلمة أو العبارة، بهذا المتنفَّس الزمنيّ الإضافيّ، شخصيّتها الخاصّة، وشحنةً قويةً من الاستقلاليّة، لأنّ هذه المسافة الزمنيّة، كما أوضحنا، تعني مهلةً إضافيةً خضراء للتفكّر، ولتَمثُّل معنى الكلمة أو العبارة التي وقع فيها المدّ.

لا بدّ أن نفرّق هنا بين "التوقّف الكامل" في القراءة؛ وبين "المدّ"، وهو نوعٌ خاصٌّ من التوقّف أو "شبه التوقّف". فالرسول ﷺ كان يتوقّف وقفةً كاملةً قبل بدئه بالفاتحة ثمّ بعد فراغه منها، وكان يتوقّف وقفةً كاملةً أيضاً عند نهاية كلّ آية، وهذا يعني مسافةً خضراء أخرى تفصل بين كلّ آيتين. أمّا وقفات المدّ، أو بالأحرى شبه الوقفات، تلك التي تتخلّل الآيات، بما تحمله من امتدادات زمنيّةٍ إضافيّةٍ طارئة، فمن

شأنها أن تضفي على قراءتنا المزيدَ من الخشوع واستحضار المعاني والتمثّل لما نقرأ، وأن تتيح لنا المزيد من الفسح الزمنيّة الخضراء التي تمنحنا الوقت الكافي للتفكّر في المعنى السابق، وتهيّئنا لاستقبال المعنى اللاحق. وقد أحصيت في كلمات الفاتحة التسع والعشرين ما لا يقلّ عن واحدٍ وعشرين مدّاً لفظيّاً، فضلاً عن مواضع التوقّف الطبيعيّ في نهايات الآيات، وهي سبعة. إنّ هذه الشحنة القويّة والمركّزة للمدّ في الفاتحة لا تجدها في لغة حديثنا أو كتابتنا العاديّة، ولا تجدها كذلك في معظم السوَر الأخرى.

إنّ هذا المدّ المتوالي في الفاتحة، خلافاً لقواعد التجويد غالباً، بل تكاد تنفرد الفاتحة بالخلوّ شبه التامّ ممّا تنطبق عليه هذه القواعد أصلاً، هو أيضاً ممّا تنفرد به الفاتحة، وهو ممّا يساعد المصلّي على الاستغراق في التفكّر والاستسلام والخضوع والتذلّل لمن يقف بين يديه، ويصلّي إليه، جلّ جلاله.

لو أحصينا، على سبيل المثال، حالات المدّ في اثنتين من أقصر سوَر القرآن الكريم، (الكوثر) و (الإخلاص)، لوجدنا أنّها لا تتجاوز في الأولى ثلاث حالات على مدى كلمات السورة العشر، وهي في الألفاظ ﴿إِنَّآ - أَعۡطَيۡنَٰكَ - شَانِئَكَ﴾ ، وأنّها لا تتجاوز في الثانية أربع حالات على مدى كلمات السورة الخمس عشرة، وهي في الألفاظ ﴿ٱللَّهُ - ٱللَّهُ - يُولَدۡ - لَّهُۥ﴾.

ومن المهمّ هنا أن أعود فأذكّر، بأنّ كلّ ما في هذا الكتاب من خواطر وتحليلاتٍ واقتراحاتٍ لا يعدو في حقيقته "أفكاراً بشريّةً" قابلةً للنقض والمراجعة، فإذا ثبت بالدليل ما يتعارض مع هذه الأفكار فنحن دائماً مع الدليل ومع النصّ، ولا ينبغي لمسلمٍ أن يكون إلاّ كذلك.



مركزيّة الركوع والسجود

حين حججتُ لأوّل مرةٍ وأنا في الأربعين، وجدت نفسي أشبهَ بولدٍ صغيرٍ وأنا أطوف مهرولاً حول الكعبة، وقد ألقيت على جسدي قطعتي القماش البسيطتين. وراح الشيطان يوسوس لنفسي: ماذا لو رآك على هذه الحال طلاّبك في الجامعة، ومنهم المسلم وغير المسلم؟ سيقولون: ماذا جرى لأستاذنا؟ أهذا الذي اعتاد أن يظهر أمامنا بوقاره واعتداده بنفسه ومشيته الواثقة وحركته المتأنّية؟ وبفضلٍ من الله كانت روح الإيمان والعبوديّة الخالصة له ما تلبث أن تهبّ عليّ بسرعةٍ لتطفئ نار هذه الوساوس وتذكّرني بأنّني: مسلم.

أنا مسلم، يعني: أنا مستسلم، أي خاضع، أي ذليلٌ وضعيفٌ وعبد، أو بالأحرى لا شيء أبداً أمام ذلك العزيز القويّ الجبّار المتكبّر، من يملك السموات والأرض ويحيي ويميت وهو على كلّ شيءٍ قدير.

هذه النسائم الروحانيّة العليا غدت بعد ذلك تهبّ علي كلّما أذللت نفسي لله في أيّ عبادةٍ من عباداتي. لقد باتت ترافقني في كل انحناءةٍ لركوعٍ، فأسبّحه وأنزّهه (سبحان ربّي العظيم) عن كلّ ضعفٍ وظلمٍ ونقصٍ وتعبٍ وغفلةٍ ووو...، ثم في كلّ قيامٍ من الركوع حين أتذكّر القاعدة الإلهيّة الذهبيّة (سمِعَ الله لمن حمِده) فأستجيب حامداً له (ربَّنا ولك الحمد) على أن خلقتَني وهديتَني ومنحتني ووو...، ثمّ في كل هبوطٍ إلى السجود لأسبّحه من جديد (سبحان ربّي الأعلى) فأنزّهه عن وعن وعن... هكذا بتّ أشعر، قولاً وفعلاً، ورأسي أخفَضُ ما يكون لله في الأرض، أنّني أقربُ ما أكون إليه هناك في السماء:

لقيتُ ثوبانَ مولى رسولِ الله ﷺ فقلت: أخبِرْني بعملٍ أعملُه يُدخلُني اللهُ به الجنّةَ. أو قال: قلتُ: بأحبِّ الأعمالِ إلى الله. فسكتَ. ثم سألتُه فسكتَ. ثم سألتُه الثالثةَ فقال: سألتُ عن ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: عليك بكثرةِ السجودِ لله، فإنك لا تسجدُ لله سجدةً إلاّ رفعَك اللهُ بها درجةً وحطَّ عنك بها خطيئةً.. [رواه الشيخان، عن معدان بن طلحة].

هل تصوّرتم قطّ أنّ بين المصلّين من يمارس السرقة أثناء صلاته، بل بين الركعة والركعة، وبين السجدة والسجدة؟ وأعجب ما في هذا النوع من اللصوص أنّهم لا يسرقون من الآخرين بل من أنفسهم:

ما تَرَون في الشاربِ والزاني والسارق؟ وذلك قبل أن تنزلَ فيهم الحدودُ، قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: هنّ فواحشُ، وفيهنّ عقوبةٌ،

وأسوأُ السرقةِ الذي يسرِقُ صلاتَه. قالوا: وكيف يسرِقُ صلاتَه؟ قال: لا يُتِمُّ ركوعَها ولا سجودَها [صحّحه الألباني في صحيح الترغيب، عن النعمان بن مرة].

ولِمَ لا؟ أوَلم تنزل الصلاة منحةً لنا من الله و﴿كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ تُحوَّل لنا فيه مرتّباتنا اليوميّة، في أوقاتٍ معلومةٍ من كلّ يوم، فتحمل لنا ما شاء الله من مَبالغ، لتدخل في أرصدتنا الأخرويّة؟ ولكنّ الصلاة تحوّلت بين أيدي أكثرنا إلى وسيلةٍ للتلهّي وإضاعة الوقت. إنّها عندهم الآن، وقد انقلبت من حقٍّ إلى واجب، مجرّد تحريكٍ للأعضاء بسرعة، وتحريكٍ للشفاه بسرعة، والوصول إلى النهاية بسرعة:

الصلاةُ ثلاثةُ أثلاثٍ، الطُّهورُ ثلُثٌ، والركوعُ ثلُثٌ، والسجودُ ثلُثٌ، فمن أدّاها بحقِّها قُبِلَتْ منه وقُبِلَ منه سائرُ عملِه، ومَن رُدّتْ عليه صلاتُه رُدَّ عليه سائرُ عملِه [صحّحه الألباني في صحيح الترغيب، عن أبي هريرة].

الله.. إذا كان للركوع الثلث وللسجود الثلث؛ فماذا بقي لغيرهما إذن؟! وهل لاحظنا أن الركوع والسجود هما الحركتان الوحيدتان اللتان فُرضتا علينا في الصلاة؟ إنّنا نبدأها بالوقوف ثابتين، ونختمها بالجلوس ثابتين، فلا يكون لنا بين الوضعيّتين الثابتتين إلاّ حركتا الركوع والسجود.

وهل لاحظنا تركيز الرسول ﷺ فيهما على اجتماع "الحركة" مع "الصمت"؟ إنّ كلّ حركةٍ منّا تواكبها عبارةٌ منفتحةٌ تتطلّب انتظاراً وتوقّفاً وصمتاً وتفكيراً بعد نطقنا لها.

نحن نردّد (الله أكبر)، وطبيعتها الانفتاحيّة تعني الصمت والتفكير قليلاً بعدها: الله أكبر ممّاذا؟

ونحن نردّد (سمع الله لمن حمِدَه)، ثمّ (ربَّنا ولك الحمد)، وطبيعتهما الانفتاحيّة أيضاً تعني الصمت والتفكير قليلاً بعدهما: نحمده على ماذا؟

ونحن نردّد (سبحان ربّي العظيم) و(سبحان ربّي الأعلى)، والطبيعة الانفتاحيّة لهما تعني الصمت والتفكير بعدهما: نسبّحه على ماذا، أو ننزّهه عمّاذا؟

من هنا كان نصيب الركوع والسجود من الصلاة ثلثيها. استحضر أيّ شيءٍ يمكن أن يساعدك على استحضار عظمة الله وجلاله عند كلّ مرّةٍ تردّد فيها: (سبحان ربّي العظيم)، أو (سبحان ربّي الأعلى)..

اجعل من تسبيحاتك، ومن كلّ صلاتك، عبادة ولا تجعل منها عادة.

وإذا كانت (الله أكبر) هي فرصتك فيها (للتصبّر) فتتقوّى بها على ما يواجهك في الحياة من صعابٍ ومِحَن، وكانت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ و(ربّنا ولك الحمد) هما فرصتك (للتذكّر) واستحضار نعم الله وفضله عليك، فإنّ (سبحان ربّيَ العظيم) و(سبحان ربّيَ الأعلى) هما فرصتك (للتدبّر) و(التفكّر) في عظمة الله وخلقه وإبداعه.

استثمر صلاتك لدنياك وآخرتك، وكن ممّن إذا سجدوا وسبّحت أفواههم؛ سجدتْ معهم وسبّحتْ جوارحهم وعقولهم وأفئدتهم.



المفتاح الأحمر (٣):
التحيّات لله..

هل تدرك تماماً معنىٰ أن تحيّي الله نفسه؟ قيمة أن تقول له جالساً بين يديه وهو ينظر إليك مستوياً علىٰ عرشه، هناك عند السدرة الكونيّة اللامتناهية، حيث جنّة المأوىٰ: أحيّيك يا الله؟

إنّ الخطوات التي قطعتَها من قبل؛ لم تكن جميعاً إلاّ مراحل تأهيليّةً لمساعدتك علىٰ الفوز بهذه اللحظة الكبرىٰ، ولَمْنحك الشحنة الروحيّة الكافية والقادرة علىٰ العبور بك كلّ هذه المسافات والطبقات الفضائيّة اللامتناهية، لتجعلك في النهاية مهيأً لمثل هذه الوقفة غير العاديّة، ونوال المكافأة غير العاديّة: أن تحيّي الله.

أيّ موقفٍ عظيمٍ هذا الذي تجد نفسك فيه إذا عشت اللحظة بكلّ أبعادها، وشعرت حقّاً أنّك تحيّي الله وتخاطبه: أحيّيك يا الله، هكذا علىٰ الخطّ الساخن وعلىٰ الهواء مباشرةً، ومن غير شفيعٍ ولا وسيط؟! والله أعلىٰ وأجلّ.. والله أعلىٰ وأجلّ.

حتّىٰ إن لم يَعقب هذا اللقاءَ مكرمةٌ كبـيرةٌ عظيمـةٌ تنتظـرك عنـد الباب، وهو ما سيحدث حقاً، فاللقاء في حدّ ذاته، لو استشعرت حقـاً لذّة اللقاء، متعةٌ ما بعدها متعة، وجائزةٌ لا تقف أمامها جائزة.

نحن في دعاء "التحيّات" أمام أربع تحيّاتٍ عظيمةٍ مختلفـةٍ لا تحيّـةٍ واحدة. ها نحن أوّلاً في مواجهة خالقنـا العظـيم نحيّيـه بهـذه التحيـة الخاصّة جداً والممتعة، والتي اختُصّ بها وحده تعالىٰ «التحيّاتُ لله»، ثمّ ها نحن بعدها مع رسـوله الكـريم ﷺ نلقـي عليـه التحيّـة التـي تـلي مباشرةً بين هذه المجموعة العطرة من التحيّـات «الـسلامُ عليـك أيّهـا النبيّ»، وعندئذٍ، عندئذٍ فقط، نبدأ بتسلّم الجائزة الكـبرىٰ حـين نُلقـي علىٰ أنفسنا نحن بالتحيّة الثالثة من هذه الباقة العجيبة «السلامُ علينا»، وهذا كلّه قبل أن نختتم الموكب القـدسيّ مـن التحيّـات بإلقـاء تحيّتنـا الرابعة علىٰ كلّ «عبادِ الله الصالحين».

بين هذه التحيّات الأربع ينزرع عددٌ من "المـساحات الخـضراء"، وهي عنصرٌ لغويٌّ شديد الأهمّيـة في الـصلاة كـما سـبق أن رأينـا. إنّـه يلعب دوراً موازياً للعنصر الانفتاحيّ، إذ يتـيح لنـا مـساحاتٍ لغويـةً متراخيةً خصبةً تتلو المواقع اللغويّة الأساسيّة الحمراء، بحيـث تـسمح لنا المسافات الزمنيّة التي يستغرقها نطقنا لهذه المواقع المتراخية الخصبة؛ باستيعاب ما سبقها من معـاني المواقـع الركنيّـة الحمـراء واستحـضار أطيافها ومُوحياتها.

لنتصوّر مثلاً أنّ دعاء "التحيّات" جاء بهذا الإيقاع اللغويّ السريع والمتلاحق وشبه الخالي من الفسَح الزمنيّة أو المواقع اللغويّة الإضافيّة الخضراء: التحيات لله، السلام على النبيّ، وعلينا، وعلى الصالحين.

أو ربّما بوتيرةٍ أسرع، كهذه الصيغة: التحيّات لله ولرسوله ولنا وللصالحين.

لاحظ أنّ الصيغتين السريعتين المقترَحتين لم تُسقطا من المعنى شيئاً، ولكنّهما خسرتا كثيراً من أبعاد المعنى وأطيافه كما جاءت في نصّه الأصليّ.

إنّ طريقتنا المختزلة لا تترك للمصلّي فسحةً زمنيّةً كافيةً بعد إلقائه التحية على الله: «التحيّات لله» ليستوعب خلالها لذّة هذا الموقف غير العاديّ، ويتملّى أهمّيته وعظمته؛ بحيث يكون لديه الوقت الكافي لاستشعار شآبيب رحمته وبركاته تعالى تتنزّل عليه فتغسله من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه كردٍّ سريعٍ واستجابةٍ فوريّةٍ منه عزّ وجلّ على من يحيّيه بهذه التحيّة. لقد أراد تعالى أن تكون تحيّة المؤمن له في صلاته طويلةً خصبةً خضراء؛ تمتدّ موجةً أو موجتين أو أكثر. وسيساعدك على هذا تسكين الحرف الأخير في نهاية الكلمات لتمتدّ معك الكلمة أكثر، ومن ثمّ لتكتسب امتداداً زمنيّاً أطول:

«التحيّاتُ... للهْ.... والصلواتْ... الطيّباتْ... الزاكياتْ... المباركات...».

وهذا كلّه ينسحب أيضاً على التحيّة التي تلي، والتي نوشك أن نلقيها الآن على الرسول الكريم ﷺ: "السلامُ عليك أيّها النبيّ".

عندما تلقي السلام على أحبّ الخلق إلى الله، وأحبّهم إلينا على الإطلاق، ستستشعر لذّتين حاول ألاّ تفرّط في أيٍّ منهما، فأعط نفسك الوقت الكافي بحيث لا تتجاوز هذه الوقفة إلاّ وقد استمتعت بكلٍّ منهما وتذوّقتها وانتشيت بالحصول عليها:

١ - لذّة إلقائك السلام على رسول الله وكأنّه أمامك، بعد أن خرجتَ لتوّك من لذّة إلقائك التحيّة على ربّك وكأنّه أمامك، مع لذّة يقينك بأنّه قد سمعك وأنت تحيّيه.

٢ - لذّة استشعارك لردّه عليك، ولا سيّما أنّك متأكّدٌ من أنّ الله سيعيد إليه الحياة ليردّ عليك هذه التحيّة:

- ما مِن أحدٍ يُسلّمُ عليّ إلاّ رَدَّ اللهُ عليّ رُوحي حتّى أردَّ عليه السلامَ [رواه ابن تيمية في مجموع الفتاوى، والنووي، عن أبي هريرة].

ولكنّ الأعجب والأبدع والأمتع من هذا أن تعلم أنّ الله تعالى يشارك نبيّه هذا الردّ الكريم فيلقي عليك بنفسه، إذا صلّيت أو سلّمت على نبيّه، تحيّته وصلواته وتسليماته هو أيضاً، كما يؤكّد لنا أكثر من حديثٍ قدسيّ:

- أكثِروا الصلاةَ عليّ يومَ الجمُعة، فإنّه أتاني جبريلُ آنفاً عن ربِّه عزّ وجلّ فقال: ما على الأرضِ مِن مسلمٍ يصلّي عليك مرّةً

واحدةً؛ إلاّ صلّيتُ أنا وملائكتي عليه عشراً [حسّنه الألباني في صحيح الترغيب، عن أنس بن مالك].

الله.. أيّ سلامٍ! وأيّة صلاةٍ! وأيّة مكافأة!.. هل تستطيع أن تتخيّل، مهما بلغ بك الخيال، قيمة أن يصلّي الله عليك؟ ثمّ قيمة أن يصلّي عليك ملايين الملايين من ملائكة الله، وبأمرٍ من الله؟ ليس لمرّةٍ واحدة، بل عشر مرّاتٍ متتالية، ثمّ أن تتكرّر تلك الصلوات القدسيّة عليك في كلّ مرّةٍ تتكرّر فيها صلاتك على رسول الله، أثناء التحيّات، وخارج التحيّات؟

* * *

المفتاح الأحمر (٤):
السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين

هذه ليست مجردّ تحيّة، بل إنّها رمزٌ للجائزة الكبرى التي نلتها جرّاء دخولك على الله، وتحيّتك له ولرسوله الكريم ﷺ. في زيارتك للرئيس أو للملك؛ ستجد لدى مغادرتك لقصره أنّه قد ترك لك عند الباب مكرمةً ملكيّةً أو رئاسيّةً لائقةً تعطى عادةً لزوّاره. ولأنّها ملكيّةٌ أو رئاسيّة، فلن تكون هديّةً عاديّةً، بل هديّةٌ لائقةٌ بمكانة الملك أو الرئيس.

فماذا يمكن أن تكون هديّة خالق الملوك والرؤساء، وخالق الأرض والسماء، إذا جئت لتحيّته؟ لا بدّ أن تكون أكبر وأضخم وأعظم ممّا تتصوّر.. إنّها مليارات المليارات من الجوائز؛ تنالها بعددِ مَن

خلَقه الله ويخلقه من عباده الصالحين، في السماء وفي الأرض، منذ خلق آدم إلىٰ يوم يُبعثون، هذا إذا كان للمرء حقاً حسنةٌ، أو حسنات، عن كلّ سلامٍ يلقيه علىٰ عبدٍ من عباد الله، كما وعدنا رسول الله ﷺ:

- من قال: السلامُ عليكم؛ كُتبتْ له عشرُ حسناتٍ، ومن قال: السلامُ عليكم ورحمة الله؛ كُتبتْ له عشرون حسنةً، ومن قال: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه؛ كُتبتْ له ثلاثون حسنةً [صحّحه الألباني في صحيح الترغيب، عن سهيل بن حنيف].

حين تردّد هذه التحيّة المزدوجة في صلاتك لا بدّ أن تستشعر مكرمةً مزدوجةً تتنزّل عليك وأنت تردّدها:

١- مكرمة استحضار السلام الإلهيّ اللامتناهي، واستشعاره وهو يتنزّل عليك وعلىٰ أهلك وأحبّتك «السلامُ علينا» فيغسلك ويغسلهم برحمته ولطفه وطمأنينته وسلامه.

٢- مكرمة استحضار هذا الكمّ اللامتناهي من الحسنات، واستشعارها تتدفّق عليك لتغمرك وتغسلك بالسكينة والسلام من رأسك إلىٰ أخمص قدميك جزاء إلقائك السلام علىٰ هذه الأعداد اللامتناهية من «عباد الله الصالحين».

مرّةً أخرىٰ، إنّ من المهمّ جداً أن تتنبّه إلىٰ أنّ السلام لم يكن عليك وحدك، إنّه هنا مع ضمير الجماعة: **علينا**، وشتّان بين أن تسلّم علىٰ نفسك فحسب، وبين أن تسلّم علىٰ كلّ من حولك من أحبابك

وأقاربك وأباعدك والمؤمنين، ثمّ على تلك السلالات التي لا حصر لها من عباد الله الصالحين، في الأرض وفي السماء وما بينهما، فينالك عن كلٍّ منهم جائزةٌ بعد جائزة.

أخيراً، اقرأ "تحيّاتك" أو "تشهّدك"، واقرأ "صلواتك الإبراهيميّة"؛ معطياً وآخذاً معاً. أنت في صلاتك لا تعطي فحسب، لا بدّ أن تتأكّد مع كلّ كلمةٍ تقولها من أنّك تسلّمت أجرك عليها حالاً بعد تلفّظها. اقرأ جملة العطاء؛ ثمّ توقّف قليلاً لتتسلّم أجر هذا العطاء. اقرأ هكذا، ثمّ توقّف هكذا بعد كلّ جزءٍ تقرأه:

أعطِ: «التحيّات لله..». ثمّ انتظر واستمتع بتسلّم الردّ

أعطِ: «والصلوات..». ثمّ انتظر واستمتع بتسلّم الردّ

أعطِ: «والطيّبات..». ثمّ انتظر واستمتع بتسلّم الردّ.. وهكذا...

أعطِ: «اللهمّ صلّ على محمّد..». ثمّ انتظر واستمتع بتسلّم الأجر والردّ

أعطِ: «وعلى آل محمّد..». ثمّ انتظر واستمتع بتسلّم الأجر والردّ.. وهكذا...

والآن، أما زلت، بعد كلّ هذا، تظنّ وأنت تقوم للصلاة؛ أنّك مقبلٌ على أداء واجبٍ تريد أن تزيحه عن كتفيك؟ أم تشعر أنّك موشكٌ على تسلّم جائزةٍ هي أكبر من كلّ جوائز الدنيا، وحقٍّ أعظم من كلّ

الحقوق؟ إذا لم تخرج من صلاتك وكأنّك وُلدت من جديد؛ فقد فاتك خيرٌ كثير.



وجلسةٌ للدعاء والأوراد

الدعاء نوعٌ مبسّطٌ من أنواع الصلاة، له روح الصلاة ولكن ليس له أطرها الرسميّة وقواعدها وتحضيراتها وإجراءاتها وأوقاتها المحدّدة، إنّه نوعٌ من الصلاة الحرّة الخفيفة الحمل والمتنقّلة (موبايل) التي تفاجئك في أيّ وقتٍ وفي أيّ مكان، فلا تجد حرجاً في أدائها حيث نادتك، وفي أيّ موقفٍ وجدت نفسك فيه.

وأستأنس هنا بظاهرةٍ لغويّةٍ صغيرةٍ عند الإنكليز، فهم لا يفرّقون في لغتهم بين الدعاء والصلاة، فكلاهما بالإنكليزيّة (pray)، وفي هذا الاختلاط والتمازج إشارةٌ لغويّةٌ ذكيّةٌ إلىٰ أنّ الدعاء، ما دام الخطاب في صياغته متوجّهاً إلىٰ الله، هو نوعٌ من أنواع الصلاة. ولعلّ هذا يفسّر تميّز لغة الدعاء النبويّ، وهو المتوجّه بالخطاب إلىٰ الله، عن لغة الحديث النبويّ، وهو المتوجّه بالخطاب إلينا. إنّ لغة الدعاء النبويّ، كما يراها المتذوّق الممحّص، ويتبيّنها الناقد المتمرّس بأساليب العربيّة وأسرار البلاغة، لها خصوصيّتها التي تتميّز بها، بلاغةً وجمالاً وإيقاعاً وسحراً وعاطفيّةً وتأثيراً، علىٰ لغة الحديث النبويّ العاديّ، مع

تأكيدنا على جمال لغة الحديث الشريف وبلاغته وتفوّقه على أساليب كلّ من كتب بالعربيّة من بني البشر. والأعجب من هذا أنّ من السهل على الناقد الحصيف أن يميّز بين لغة الحديث القدسيّ ولغة الحديث النبويّ العاديّ أيضاً.

إنّنا نلاحظ في لغة الدعاء وروحه وإيقاعه لمسةً روحانيّة، وكأنّ السماء قد شاركت في صياغته، شأنه شأن الحديث القدسيّ أيضاً. ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على تلقين أصحابه للدعاء كلمةً كلمةً، وكان ينبّههم إلى ضرورة الحفاظ على صياغته وألفاظه دون أيّ تغيير. واسمعه كيف يصحّح لذلك الذي أحلّ في الدعاء لفظ (الرسول) محلّ لفظ (النبيّ) رغم أن اللفظين كليهما يشيران إلى الرسول ﷺ:

- عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبيّ ﷺ: إذا أتيتَ مضجعَكَ فتوضّأْ وُضوءَكَ للصلاة، ثمّ اضطجِعْ على شِقِّكَ الأيمن، ثمّ قُل: "اللهمّ إنّي أسلمتُ نفسي إليك، ووجّهتُ وجهي إليك، وفوّضتُ أمري إليك، وألجأْتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا مَنْجى منكَ إلاّ إليك، آمنتُ بكتابِك الذي أنزَلْت، ونبيِّك الذي أرسَلْت". فإنْ مُتَّ من ليلتِك فأنتَ على الفطرة، واجعلْهنّ آخرَ ما تتكلّمُ به. قال البراء: فردّدتُها على النبيّ ﷺ فلمّا بلغتُ "آمنتُ بكتابِك الذي أنزلتَ" قلت: "ورسولِك"، قال: لا، "ونبيِّك الذي أرسلت" [رواه الشيخان].

ويروي الصحابة كيف كان ﷺ يعلّمهم بعض الأدعية كما يعلّمهم سور القرآن، إشارةً إلىٰ حرصه ﷺ علىٰ الحفاظ علىٰ لغة الدعاء من غير تبديلٍ ولا زيادةٍ ولا نقصان:

-عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُعلِّمُهم هذا الدعاءَ كما يُعلمُّهم السورةَ من القرآنِ. يقول: "قولوا: اللهمَّ إنّا نعوذُ (وفي رواية: إنّي أعوذ) بكَ من عذابِ جهنَّمَ، وأعوذُ بك من عذابِ القبر، وأعوذ بك من فتنةِ المسيحِ الدَّجّالِ، وأعوذ بك من فتنة المَحيا والممات" [رواه مسلم].

- كانَ رسولُ اللهَّ ﷺ يعلِّمُنا التَّشَهُّدَ كما يُعلِّمُنا السُّورةَ منَ القرآنِ [رواه ابن ماجه وصحّحه الألباني، عن عبد الله بن عبّاس] (وفي رواية عن عبد الله بن عمر: لا يُحبُّ أنْ يُزادَ فيها حرفٌ ولا يُنتقص).

* * *

الرصيد

تُرىٰ هل حاول أحدنا حين يخرج من صلاته أن يمسك بالقلم، ويقوم ببعض الحسابات، ويسجّل عدد اللحظات التي أحسّ فيها بأنّه يخاطب الله حقّاً، وبأنّه شعر خلال صلاته بأنّ اتّصالاً ما قد تحقّق، وأن القلب قد ارتجف، والجسد قد ارتعش، ولو لمرّةٍ واحدة، ولو لثانيةٍ

واحدة أو جزءٍ من الثانية، بحيث يستطيع في النهاية أن يحسب هذه اللحظات، فيقدّر، ولو بشكلٍ تقريبيٍّ بشريّ، ما ناله من حصاد تلك الصلاة وفقاً للجدول الذي قدّمه لنا رسول الله ﷺ:

- عن عمّار بن ياسرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الرسول ﷺ أنّه قال: "إنّ الرجل لَينصرفُ - أي من الصلاة - وما كُتبَ له إلاّ عُشْرُ صلاتِه، تُسْعُها، ثُمُنُها، سُبُعُها، سُدُسُها، خُمُسُها، رُبُعُها، ثُلُثُها، نِصْفُها".

[رواه أبو داود والنسائي وصحّحه الألباني، عن عمّار بن ياسر].

حاول ألاّ تخرج من صلاتك إلاّ وقد أحسست؛ أو بدرَ منك واحدةٌ أو أكثر من هذه العلامات، فإن فاتك ذلك في الركعة الأولىٰ فحاول في الثانية، ثمّ الثالثة، ثمّ الرابعة، فإن أخفقت في السُنّة فحاول في الفرض، فإن أخفقت في الفجر ففي الظهر، ثمّ العصر، ثمّ المغرب، ثمّ العشاء، بحيث لا تخرج من يومك إلاّ وقد بكيت في صلاةٍ واحدةٍ من فرائضك أو نوافلك علىٰ الأقلّ، أو قد ارتجفت أو ارتعش قلبك في بعضها؛ أو أحسست بلذة الاتّصال العظمىٰ بالله عزّ وجلّ، وذلك أضعف الإيمان. فإن زدت عن ذلك، وما أحسن أن تزيد، فنعمّا الغنائم ونعمّا الأرباح التي استثمرتها في حياتك لتضاف إلىٰ رصيد آخرتك.

كثيراً ما تعلن بعض المخازن الكبرىٰ عن جوائز تشجيعيّةٍ ثمينةٍ يمكن أن يُرَشِّحوا زبائنهم لنيلها لو ملأوا قبل خروجهم من المخزن قسيمةً يذكرون فيها عنوانهم وهاتفهم، علىٰ أن يتم إبلاغهم في حينه إذا حدث أن ربحوا الجائزة.

إنّك في الصلاة داخلٌ على مخزنٍ إلهيٍّ، ولله المثل الأعلى، تملأ فيه عشرات القسائم، لكلّ قسيمةٍ جائزتها. والفرق بين جوائز المخازن التجاريّة وجوائز المخزن الإلهيّ، بل إنّه واحدٌ من فروقٍ كثيرة، هو أنّك في الأخير لست مجرّد "مرشّحٍ" لنيل إحدى الجوائز العديدة، بل إنّ جميع هذه الجوائز مضمونةٌ لك مائةً بالمائة، ولكن، فقط.. لو نجحت في ملء قسائمها بالشكل الصحيح، لا أكثر من ذلك ولا أقلّ.

أنت مقبلٌ في صلاتك على الدخول في أكبر المشروعات الاستثمارية تحقيقاً للأرباح وضماناً لها على الإطلاق، ومع ذلك فبأقلّ التكاليف. إنّ رأس المال الذي يتطلّبه هذا المشروع التجاريّ الضخم يكاد يكون صفراً. أنت في الزكاة تحتاج إلى أن تدفع ٢.٥ ٪ من مالك على الأقلّ، وفي الحجّ تحتاج إلى ميزانيّةٍ لا يستهان بها للسفر والإقامة وغيرهما، وفي الصيام تحتاج إلى الامتناع عن الطعام والشراب وعن عديدٍ من المباحات الأخرى، فضلاً عن دفع صدقة الفطر في النهاية. أما الصلاة فتكاليفها لا تزيد عن الماء الذي تستهلكه في وضوئك، والوقت الذي تستغرقه في أدائها. هذا كلّ شيء، لا رسوم إضافيّةً ولا ضرائب.. والمقابل: الأرباح الضخمة التي تدخل في حسابك حالاً، بل تتسلم بعضها باليد قبل خروجك من الصلاة: الراحة النفسيّة، والصحّية، والسكينة، وصفاء الذهن، وشعورك بأنّك وُلدت من جديد، على حين يُغلّف بعضها الآخر ويُرسل في صناديق أنيقة، إمّا إلى عنوانك في الدنيا: التوفيق، البركة، السلامة، إجابة الدعوات المختلفة،

وإمّا إلىٰ عنوانك في الآخرة: محو ما سبقها من سيّئات، وإضافة ما لا يُحصىٰ من الحسنات إلىٰ رصيدك هناك.

ألا يستحقّ مشروعٌ كهذا منّا إعداد دفترِ حساباتٍ خاصٍّ لتسجيل الأرباح والخسائر؟ الخسائر هنا ليست خسائر بالمعنىٰ الذي نعرفه، إنّها ليست نقصان رأس المال، وإنّما هي نقصان كميّة الأرباح التي كان يمكن أن نضيفها إلىٰ رأس المال. إنّ رأس مالنا سيظلّ، في أسوأ الأحوال، سليماً كاملاً في الصلاة لا تمتدّ إليه يد الخسارة والنقصان، إلاّ أن تكون صلاتنا نفاقاً وخداعاً ومراءاةً لا سمح الله.

بناءً علىٰ هذا المفهوم الاستثماريّ الجديد لحساب الأرباح والخسائر؛ هل يمكنكم الآن القيام بتقديراتٍ معقولةٍ لما استطعتم تحقيقه من أرباح في نهاية كلّ صلاة، وكذلك تقدير ما فاتكم من هذه الأرباح في زحمة مشاغلكم الذهنيّة التي ربّما تكون قد غلبتكم فشدّتكم للحظاتٍ بعيداً عن الصلاة؟



جدول ما نالك من جواهر الصلاة

لا تنسَ أوّلاً، وأنت تقوم بمراجعة حسابات صلاتك، أن تعود إلىٰ الخطوط الخمسة التي عرضناها للصلاة لترىٰ مدىٰ التزامك بكلّ خطٍّ منها: خطّ الزمن، وخطّ اللسان، وخطّ الجسد، وخطّ القلب،

وخطّ العمل. ولا تنسَ أن تُجري هذه المراجعة على ضوء عدد الدقائق التي أنفقتها في صلاتك، فإن انتهيت من الركعتين في دقيقتين أو ثلاثٍ فارجع فصلّ فإنّك لم تصلّ، لأنّ صلاتك لم تتسع إلا لحروفك ولم يكن فيها متنفّسٌ لاستيعاب معاني هذه الحروف، ولترجمةِ هذا الاستيعاب بحيث يتجسّد في حركة الخطوط الأربعة الأخرى.

لا بد لكلّ مسلمٍ من أن يضع لنفسه بنفسه ميزاناً يقيس به الدرجات التقريبيّة التي يمكن أن يكون قد نالها بعد كلّ صلاة. إنّه وحده الذي يعرف كيف كانت صلاته، ولذلك اقترحتُ هذا الميزان البشريّ الأوّليّ البسيط الذي أنصح نفسي وأنصحكم بأن تستعينوا به وأن تبنوا عليه حساباتكم وتقديراتكم البشريّة التقريبيّة لحصاد كلّ صلاةٍ بعد انتهائكم منها، وإن كانت الحصيلة النهائيّة لصلاتنا لا يعرفها حقّ معرفتها، ولا يزِنها بميزانها الحقيقيّ، إلاّ العليم الخبير الحسيب الذي توجّهنا بهذه الصلاة إليه:

١- هل استشعرتُ، وأنا أرفع يديّ مكبّراً تكبيرة الإحرام، أنّني تركت كلّ شيءٍ ورائي ودخلت في عالمٍ عُلويٍّ آخر لا علاقة له بعالم الأرض؟

٢- كم مرّةً استطاعت (**الله أكبر**) أن تنتشلني من الشرود عن الصلاة، وأن تطرد من ذهني أمراً كان يوشك أن يصرفني عن عالمي الجديد الذي دخلته لتوّي، فارتفعتُ بها منتشياً متعالياً

عن كلّ سفاسف الدنيا وملهياتها، لأنّني الآن مع "الأكبر"؟

٣- كم مرّةً استطاع لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أن يغسلني بنوره عموديّاً (بمعنى الرحمة الطازجة التي تتنزّل عليّ الآن من السماء)؟ وكم مرّةً استطاع لفظ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أن يغسلني بنوره أفقيّاً (بمعنى الرحمة الأبديّة الممتدّة منذ الأزل حتّى الأبد) بحيث شمل التطهيرُ كامل أنحاء جسدي وروحي معاً؟

٤- كم عبارةً قرآنيّةً قرأتُ، في الفاتحة، من مثل: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ – رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ – مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ – إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فتمثّلتها واستشعرت معناها في نفسي، واستحضرت عظمة الله تتجلّى أمامي، فأحسست أنّ شيئاً ما قد تغيّر في داخلي حين كنت أقرأها؟

٥- كم عبارةً أو آيةً قرآنيّةً قرأتُ، من الفاتحة أو ما بعدها من الآيات، فمنحتُها ما يكفي من مسافةٍ زمنيّةٍ خضراء لأمسك بها وأتأمّلها وأتمثّل معناها؟

٦- هل استحضرتُ أهلي وأقاربي وأصدقائي، مسلمين وغير مسلمين، ومن أعدائي، مسلمين وغير مسلمين، حين كنت أردّد ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ لتعمّهم هذه الدعوة الكريمة للهداية؟ وهل أحسست بلذّة المكافأة الفوريّة تتنزّل عليّ جزاء تأكيدي لنقاء نفسي تجاههم، واستمطاري لهم من الله الهدايةَ

أو الرشاد إلى الصراط المستقيم؟

٧ - كم مرةً حاولت أن أملأ في ذهني الفراغ الافتراضيّ الأخضر بعد كلّ (**الله أكبر**) وبعد كلّ تسبيحةٍ من تسبيحات الركوع والسجود؟ وكم ثانيةً خضراء منحت نفسي حقاً بعد كلّ تكبيرةٍ أو تسبيحةٍ لملء هذا الفراغ بفكرةٍ افتراضيّةٍ مناسبة؟

٨- كم زرّاً أحمر من الأزرار التالية ضغطتُ أثناء صلاتي؛ وشعرت بأنّ تيّاره قد وصل إلى أعماقي فهزّني أو ارتعش له قلبي أو أبكاني:

- زرّ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾؟ كم ثانيةً منحتُ نفسي بعد هذه العبارة لأستشعر طبيعة ما أطلبه من العون، ولأستحضر صورة نفسي وصورة الناس الذين يغطّيهم هذا الطلب بصيغته الجمعيّة الشاملة (نستعين)؟

- زرّ «**التحيّات لله**»؟ كم كانت المدّة الزمنيّة التي استغرقها المدّ، وكذلك التوقّف بعده، في نطقي لهاتين الكلمتين، ثمّ نطقي للجزء التالي (والصلوات) ثمّ الثالث (والطيّبات)... وأنا أحاول أن أعطي لنفسي وقتاً أستنزل فيه على روحي هذا المشهد الرائع: الدخول على الله، ثمّ إلقاء تحيّتي عليه بالصيغة نفسها التي علّمني إيّاها، واستشعار نشوة إلقاء التحيّة عليه، ثمّ استشعار نشوة تلقّي الردّ منه تعالى على هذه التحيّة؟

- زرّ «**السلامُ عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته**»؟ كم كانت المُدّة التي استغرقتها قراءتي لهذه التحيّة، ولا سيّما الحروف الممدودة في (السلام - الله - وبركاته) بحيث استطعت، مستعيناً بمسافات المدّ هذه، وكذلك بالمسافة الزمنيّة الخضراء بعد هذه التحيّة، شأنها شأن التحيّة التي ستليها، استحضارَ نشوة إلقاء السلام على النبيّ ﷺ أوّلاً، ثمّ نشوة الإحساس بتلقّي الردّ مباشرةً منه ثانياً؟

- زرّ «**السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين**»؟ هل شعرت، وأنا ألقي هذه التحيّة على نفسي وعلى من يهمّني أمرهم من البشر حولي، ثمّ على الملايين من أجيال عباد الله الصالحين في الأرض وفي السماء، أينما كانوا، وفي أيّ زمنٍ عاشوا، بأنّ رشّاشاً من (السلام) القدسيّ الطاهر يتنزّل عليّ، وعليهم، فيطهّر أعماقي وأعماقهم من كلّ ما يؤذيني ويؤذيهم، أوّلاً، وأنّ رشّاشاً طاهراً آخر يغمرني بعد ذلك مباشرةً وأنا أتلقّى المكافأة الكريمة والمُجزية من السماء على كلّ تحيّةٍ ألقيتها، فيغسلني من قمّة رأسي إلى أخمص قدميّ ليزيل عنّي أيّ صداعٍ أو مرضٍ أو تعبٍ أو همٍّ أو قلق، ثانياً؟

٩- هل استطعت أن أعوّض في ركعات السنّة ما يمكن أن يكون قد فاتني من هذه النقاط في ركعات الفرض، أو ربّما العكس أيضاً؟

١٠- وأخيراً، هل نجحت في هذا التدريب الجديد من تـدريبات الصبر؟ وهل أحسست أنّ شحنةً جديدةً من طاقة الـصبر قـد أضيفت إليّ، وأنّ شيئاً ما قد تغـيّر في داخـلي، روحـاً وجـسداً وخُلقاً وأناةً وحكمةً، مهما كان هذا التغيير طفيفاً؟

* * *

جدول ما فاتك من جواهر الصلاة

١- كم (**الله أكبر**) فاتتني من غـير أن أتغلّـب بهـا عـلى مـا كـان يصرفني عن صلاتي؟

٢- كم آيةً قرأتُ، فمررت بها مرور الكرام، ولم أستحضر معناها وأتمثّله؟

٣- كم تسبيحةً، في الركوع أو السجود، أو عبارةً أو تحيّةً ردّدتهـا ترديداً ببغائيّاً فلم أستمتع بصِرف حلاوتها وطيب معناها، ولم أستثمر فراغها الافتراضيّ الأخضر؟

٤- كم مرّةً سمحت لنفسي أن أكفت ثوبي أو بنطـالي أو شـعري أثناء النزول للسجود، وكـم مـرةً حرّكـت يـدي، أو أيّـاً مـن جوارحي، حركةً كان يمكنني الاستغناء عنها من غير أن يؤثّر ذلك في درجة خشوعي؟

٥- كم مرةً شغلتني عن صلاتي خطـوطٌ أو رسـومٌ أو ألـوانٌ أو

أشياء كانت أمامي على سجادة الصلاة، أو من حولي حيث كنت أصلّي؟

٦- كم مرّةً غلبني أمرٌ من أمور الدنيا فجرّني بعيداً عمّا كنت أردّده في صلاتي؟

٧- كم مرّةً شدّني عن صلاتي حديثٌ جانبيٌّ ممّن هم معي، في المسجد أو غيره، أو شغلني عنها صوت تلفازٍ أو مذياع، أو رنين هاتفٍ أو قرع باب؟

٨- أيّ خطٍّ من خطوط الصلاة الخمسة قد فاتني قطاره في صلاتي فلم يتحقّق وجوده مع الخطوط الأخرى: الزمن، اللسان، الجسد، القلب، العمل؟

٩- بعد الصلاة: هل اكتسبت مناعةً مضافةً أشعر أنّها ستحول بيني وبين ممارسة عملٍ يتنافى مع ما ناجيت به ربّي أثناء الصلاة؟

١٠- بعد الصلاة: هل نجحت في دورة العزيمة والأناة والصبر؟ أم دخلت في الصلاة وخرجت منها كما دخلت؟

* * *

أخيراً، في نهاية يومك، حين تضع رأسك على الوسادة، وتردّد أدعية النوم المأثورة عن رسول الله ﷺ، لا تنس أن تحاول، في عمليةٍ

سريعةٍ لا تستغرق منك أكثر من دقيقة، استحضار مجموع النقاط التي سجّلتها لنفسك في صلوات ذلك اليوم، ولا سيما تلك المرتبطة بالمفاتيح الحمر، وتقارن هذا المجموع بالمجموع الذي أحرزته في اليوم السابق لترىٰ إن كنت تقدّمت برصيدك اليوميّ إلىٰ الأمام، أم تراجعت إلىٰ الوراء فتحاول أن تستدرك ذلك التراجع في يومك التالي بحيث يكون الخطّ البيانيّ لنقاطك في تصاعدٍ مستمرّ. وحاول في نهاية الأسبوع أن تعطي لنفسك درجةً نهائيّةً عن الأسبوع كلّه، ثمّ قارن هذه الدرجة مع درجة الأسبوع الفائت لتتأكّد من أنّك في تقدّمٍ مستمرٍّ في أرباح استثماراتك.



لتكن حياتك كلّها صلاة

ما أفتأ أقلّب بعقلي الحديث النبويّ الشريف الذي يحدّثنا عن نزول الأمر بالصلاة، عندما عُرج بالنبي ﷺ إلىٰ السماء وتلقّىٰ هناك الأوامر العليّة بتشريع الصلاة. لقد نزل الأمر بدايةً، كما يحدّثنا النبي ﷺ، بفرض خمسين صلاة، ثم ما يزال النبيّ الكريم يسأل ربّه أن يخفّف عن أمته عدد هذه الصلوات حتّىٰ جعلها خمساً. كنت دائماً أتساءل، ولعلّكم تساءلتم معي أيضاً، كلّما مرّ بذاكرتي هذا الحديث: تُرىٰ، كيف كان لنا أن نصلّي خمسين مرةً كلّ يوم، وهل سيتسع وقتنا في هذه الحال لأيّ شيءٍ آخر غير الصلاة؟ متىٰ سنأكل ونشرب وننام

ونستيقظ ونقرأ ونكتب ونتكلّم ونتعلّم ونعمل ونبني ونعمّر الأرض ونستمتع بالحياة ويزور أحدنا أهله وأصدقاءه ووو...؟

وحين أدركت أخيراً حقيقة الصلاة، وجوهرها، وطبيعة دورها التفاعليّ مع النفس ومع الحياة، والأثر الذي يخرج به المصلي من صلاته، أدركت أنّ الصلاة هي الحياة، وأن الحياة، بكلّ تفاصيلها وجزئيّاتها، هي نوعٌ، بل أنواعٌ مختلفةٌ ومتلوّنةٌ من أنواع الصلاة.

عندما تستيقظ وتكتشف أنّك ما تزال حيّاً بعد موت النوم القصير الذي كنت فيه، وتحسّ بالعرفان لمن بعث فيك الحياة من جديد؛ فأنت تصلّي،

عندما تنظر في وجوه أطفالك، أو أطفال الآخرين، وتحار في سرّ نموهم وعجائب تطوّر خَلقهم وخُلقهم، وهم يكتسبون كلّ يومٍ شكلاً جديداً، ومهارةً جديدة، وكلماتٍ وعباراتٍ جديدة؛ فأنت في صلاة،

عندما تُرشد أهلك إلىٰ الخير، وتدعوهم إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، أطاعوك بعد ذلك أم عصوك، فأنت في صلاة،

عندما تسامح أخاك أو زميلك أو جارك، صادقاً ومن أعماق قلبك، علىٰ ذنبٍ ارتكبه بحقّك؛ ثمّ تعتذر إليه وكأنّك أنت المذنب، فأنت في صلاة،

عندما تسمع شتيمتك بأذنيك فلا تردُّ عليها، وتحتسبها لله؛ فأنت في صلاة،

عندما تغادر مجلساً يؤكلُ فيه لحمُ أخيك ميْتاً، وتجد نفسك عاجزاً عن الدفاع عنه أو تغيير مجرى الحديث؛ فأنت في صلاة،

عندما تدعو لغير المسلم بالهداية للصراط المستقيم، بدلاً من محاربته ومناكفته والحقد عليه، فأنت في صلاة،

عندما تُري غير المسلم رحمة الإسلام، وتسامح الإسلام، ورقّة الإسلام، ومحبّة الإسلام، وحضاريّة الإسلام، وأخلاق الإسلام، وابتسامة الإسلام؛ فأنت في صلاة،

عندما تحافظ على أنظمة البلاد التي تعيش فيها، حتّى لو كنت في بلدٍ غير مسلم، وتحسن عرفانك لها، وتفي بعهدك معها، ماليّاً وضريبيّاً وأخلاقيّاً؛ فأنت في صلاة،

عندما يحيط بك السوء من كلّ جانب، فتنكره في نفسك، ثمّ لا تجد أنّك قادرٌ على تغييره بيدك ولا بلسانك؛ فأنت في صلاة،

عندما تجتهد لترضي أهلك وترضي من حولك، أصبت في اجتهادك أم أخطأت، فأنت في صلاة،

عندما تثق أنّ أمرك مع الله كلّه خيرٌ، فلا تظنّ به إلاّ خيراً، مهما وسوس لك شيطانك بغير ذلك، فأنت في صلاة،

عندما تحمد الله على ما أعطاك وعلى ما ابتلاك؛ فأنت في صلاة،

عندما تغضّ بصرك وأنت محاطٌ بمغرياته من كلّ جانب؛ فأنت في صلاة،

عندما تصبر على لأواء المرض أو الفقر أو المصيبة أو شظف العيش؛ فأنت في صلاة،

عندما توفّر دماً، كنت في شكٍّ ولو واحداً في المليون من جواز هدره، فأنت في صلاة،

عندما تشارك المسلمين في بلد غير بلدك؛ همومهم وآلامهم وأحزانهم، ولو بصوتك أو عواطفك أو دعائك، فأنت في صلاة،

عندما تزور مريضاً، فأنت في صلاة. أوَلم ينصحك نبيُّك بالتوضّؤ لمثل هذه الصلاة؟

عندما تستسلم للنوم، وتريح جسمك من عناء يومٍ طويلٍ استعداداً ليومٍ جديدٍ من العمل والإعمار، فأنت في صلاة. أوَلم ينصحك نبيُّك بالتوضّؤ لمثل هذه الصلاة؟

وأخيراً، عندما تحاسب نفسك قبل أن تنام، ما كان لك، وما كان عليك ذلك النهار، فأنت أيضاً في صلاة.

حياتك كلّها صلاةٌ لو نظرت إليها حقّاً بعين المصلّي، وتفاعلت مع جزئيّاتها تفاعل المصلّي مع كلماته. لا تفوّت عليك أيّاً من هذه الصلوات المتاحة أمامك في كلّ زاويةٍ وعند كلّ منعطَف، فما جزئيّات الحياة إلا كلماتٌ ناطقةٌ بعظمة الخالق، ومسبِّحةٌ بقدرته، وحامدةٌ لفضله، ومعرِّفةٌ بنِعمه، ومذكّرةٌ لعباده بالتوجّه الدائم إليه وبأنّهم في صلاةٍ دائمة وإن لم يتوضّؤوا لمثل هذه الصلاة.

لا تغضب لو أساء إليك إنسان، ولا تحقد عليه، بل اجعلها تسبيحةً وصلاةً وأنت تردّد في نفسك: سبحان الله، أأنا وذلك الإنسان، من خلْق الله؟ أيّة ريشةٍ عظيمةٍ استطاعت أن تمنح لكلٍّ من هذه البلايين من النفوس البشريّة المختلفة الأشكال والطبائع والأخلاق، شخصيّةً مختلفةً؟

اجعل من كلّ شيءٍ تصادفه أو تسمعه أو تراه من حولك تسبيحةً لله وإن لم تفقهها. كيف أستقبح منظراً أو خَلْقاً أو خُلُقاً وهو من صنع الله؟ حتّىٰ البرق الذي يخطف بصري، والرعد الذي يهتزّ له فؤادي، وما ترتجله الطبيعة من عنفٍ ورهبةٍ وثورة، لا تنعكس في نفسي إلاّ تسبيحاتٍ أخرىٰ تزيدني قرباً إلىٰ الله.

في كلّ حركاتك وسكناتك، وقيامك وقعودك، وطعامك وشرابك، وكسبك وإنفاقك، وسماعك ونظرك ونطقك وظنّك وتفكيرك، كن جزءاً من هذا الكون الذاكر الحامد المسبّح العابد بلا توانٍ، والمصلّي بلا توقّفٍ، فأنت في صلاة ما دمت في حياة، واجعل دستورك في الحياة هذه القواعد الذهبيّة:

- لا تخطُ خطوةً خارج بيتك ابتغاء إصلاح دنياك إلاّ وقد خطوت معها خطوةً داخل نفسك ابتغاء إصلاح آخرتك.
- لا تُهدر ساعةً من وقتك إلاّ وأنت تظنّ أنّه لم يبق لك من العمر إلا أقلُّ منها.

- لا تغسل أعضاءك في الوضـوء مـن أدران مـا فوقهـا إلاّ وقـد غسلت معها بعض أدران ما تحتها.

- لا تردّد كلمةً في صلاتك إلاّ وقد عزمت على أن يصدّقها بعـد ذلك عملك.

- لا تحنِ رأسَـك خاشـعاً في صـلاتك إلاّ وقـد أحنيـت نفـسك تواضعاً في حياتك.

- لا تخرج من المسجد وأنت الشخص نفسه الذي دخله قبل قليل.

- لا تودّع شهر رمـضان إلاّ وقـد ودّعـت مـن حياتـك معـصيةً وأضفت إليها طاعة.

- لا تمنح حسنةً بيمينك إلاّ وقد دفعت عنك سيّئةً بشمالك.

- لا تذبح أضحيةً تقرّبك من الجنّة إلا وقد ذبحت معها معـصيةً قد تُقرّبك من النار.

- لا تنفق قرشاً زائداً إلاّ وقد تذكّرت من مات باحثاً عنه لينقـذه من بردٍ أو مرضٍ أو جوع.

- لا تملأ الكأس إلى حافّتهـا إذا كنـت تعـرف أنّـك لـن تـشرب إلاّ نصفها.

- لا تُهدر نقطة ماءٍ إلاّ وقـد تـذكّرت مـن يمـوت عطـشاً لمثلهـا كلّ يوم.

- لا تـضع لقمـة طعـامٍ في فمـك إلاّ وقـد تـذكّرت مـن مـاتوا محرومين منها.

- لا ترمِ بفُتات المائدة إلاّ وأنت موقنٌ أنّ الله قادرٌ على حرمانـك من كلّ ما على المائدة.

- لا تـستمتع بـشيءٍ مـن فاكهـة الـدنيا إلاّ وقـد حفزتـك عـلى الاستمتاع بفاكهة الآخرة.

- لا تستمتع بما كسبته فأفنيته، بقدر ما تستمتع بما أعطيته فأبقيته.

- لا تغضب إن لم تملك حذاءً مناسباً، فمن الناس مـن لا يملـك رِجْلين لتلبساه.

- لا تتذمّر لو تعطّلت أداةٌ أو قطعة أثاثٍ في بيتك، فهناك مـن لا يملك بيتاً.

- لا تذرّ ملحاً على طعامك إلاّ وتذرّ معه سكّراً على كلماتك.

- لا تتكلّم عن أحدٍ بكلمةٍ سوءٍ إلاّ وأنـت مـوقنٌ أنّ هنـاك مـن سيتكلّم عنك بمثلها.

- لا توجّه كلمـة سـوءٍ لأحـد والـديك إلاّ وأنـت مـوقنٌ أنّـك ستسمع مثلها يوماً من ولدك.

- لا تَحقر من هو دونـك حتّـى تعلـم أنّ الله أقـدر عـلى تحقـيرك منك عليه.

- لا تطلب من الله العفو إذا أسأت في حقّه إلاّ وقد بادرت بالعفو عمّن أساء في حقّك.

- لا تسمح ولو للقليل من الكراهية بالدخول عبر نافذةٍ من قلبك إلاّ وقد سمحت للكثير من المحبّة بالدخول من نافذةٍ أخرىٰ.

- لا تدعُ لمن تحبّهم إلاّ وقد سبقت بالدعاء لمن تشكّ في أنّك تحبّهم، أو لمن تشكّ في أنّهم يحبّونك.

- لا تستصعبنّ الصبر الطويل إلاّ وأنت مستمتعٌ بيقينك بالأجر الكبير وبالفرج القريب.

وأخيراً لا تنسَ أن تعمل بوصيّة نبيّك الكريم ﷺ: اعبُدِ اللهَ كأنّكَ تَراه، واعدُدْ نفْسَكَ في المَوتَىٰ، واذكُرِ اللهَ عندَ كلِّ حَجَرٍ وعندَ كلِّ شَجَرٍ، وإذا عَمِلْتَ سيّئةً فاعمَلْ بجَنْبِها حَسَنةً، السرُّ بالسرِّ، والعَلانِيَةُ بالعَلانِيَةِ [حسّنه الألباني في صحيح الترغيب، عن معاذ بن جبل].



وبعد، تذكّر مع كل نَفَسٍ تتنفّسه أنّ حياتك كلّها صلاة. كن في كلّ أحوالك وتقلّبك في الحياة؛ طاهرَ النفس طهارة جسدِ من هو مقبلٌ علىٰ الصلاة، نقيَّ الروح نقاءَ الدم الذي أجراه الله في عروقك، شاكراً لربّك شكر كل خليّةٍ من خلاياك، وشكر كل مفصلٍ وكل عضلةٍ وكل ميسمٍ من مسامّ جسدك.

واعلم أنّ إدارتك لصلاتك إنّما هي إدارةٌ لحياتك. لقد أعطاك الإسلام ركنه الأوّل لتضمن به الآخرة، وأعطاك ركنه الثاني لتضمن به الدنيا والآخرة. واعلم أنّني لم أقصِد ممّا في هذا الكتاب إلاّ أن يكون مجرّد مفاتيح صغيرة، تمسكها بيديك، فتفتح بها خزائن فكرك، وتحلّق بها في عوالم خيالك مع الله، وتخوض بها بحار اكتشافاتك مع خَلق الله، بحيث يكون لك من كلٍّ منها كتابُك الخاصّ لإدارة صلاتك وإدارة حياتك.